أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996

عدد 158 – الأربعاء 5 تشرين الأول (أكتوبر) 2011

حبي الأول

رواية

سحر خليفة

رسوم: إسماعيل شمّوط

MBI AL JABER Foundation

المؤسسة الراعية

الشريك الثقافي

معالي السيدة إيرينا بوكوفا Irina Bokova، المديرة العامة لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة –اليونسكو– ومعالي الشيخ محمد بن عيسى الجابَر MBI Al Jaber المبعوث الخاص لمنظمة اليونسكو للتسامح والديمقراطية والسلام.

إيماناً منها بأهمية نشر المعرفة وتشجيع القراءة ودعم الفن التشكيلي لمواجهة الأزمة الثقافية الخانقة في العالم العربي، وإسهاماً في إعداد جيل عصريّ عربي قادر على المساهمة في بناء الحضارة الحديثة والتوصل عبر التربية والعلم والثقافة إلى إدراك الديمقراطية والسلام تمشّياً مع مبادئ الميثاق التأسيسي لليونسكو، تُصدِرُ مؤسسة محمد بن عيسى الجابر MBI Al Jaber Foundation بالتعاون مع منظمة اليونسكو / UNESCO وبالاشتراك مع كبريات الصحف اليوميّة العربيّة تؤازرها نخبة من كبار الأدباء والكتّاب ومن ورائهم الملايين من القارئين،

كتاب في جريدة

شهرياً وبشكل مجاني ومنتظم هديّة منها إلى أكبر فئة من القرّاء في جميع العواصم العربية والعرب في العالم.

اقرؤا «كتاب في جريدة» الأربعاء الأول من كل شهر على الموقع الإلكتروني www.kitabfijarida.com

MBI AL JABER Foundation

UNESCO

هذه الرواية

في هذه الرواية أعود بالذاكرة إلى الوراء عبر أبطال عاشوا مرحلة أربعينيات القرن الماضي حين خسرنا الجزء الأعظم من فلسطين بقيام الدولة العبرية، الإسفين الذي زرعه الغرب في قلب العالم العربي ليساهم في تفسخه وتشتته وانشقاقاته ويبقيه منشغلا بحروب متتالية تقصيه عن قضاياه الداخلية وتنمية ثرواته البشرية والنفطية وقدراته.

في البداية، نتعرف على الراوية نضال القحطان التي تعود من الغربة لتستقر في الدار الكبيرة، دار العيلة، التي باتت بفعل الإهمال والهجران، وبفعل ما مر على المدينة من احتلال وهزائم، مكانا لا يصلح للسكنى، خرابا آيلا للسقوط كل ما فيه متداع ومنخور ومتهالك. فتبدأ بعملية ترميم وإصلاح تكون فاتحتها نبش لبقايا الأهل المندثرين ومخلفاتهم، فتعثر على كنز من الذكريات والتذكارات واللوحات وصور الماضي حين كانت ما تزال بعد صبية، وكانت لها قصة عشق طفولي قديم لفتى كان منخرطا في ذاك الوقت مع الثوار.

إذن نحن هنا، في الرواية، بين زمنين، زمن الانتداب البريطاني وما واكبته من مقاومة مخيبة للآمال من قبل الثوار، وزمن الاحتلال الإسرائيلي وما يأتي به من قصف وتدمير وانتهاكات. كما أننا بين قصتين عاطفيتين، أو عدة قصص، لكن أبرزها تلك التي دارت أحداثها بين الراوية نضال القحطان والفتى الثائر في أربعينيات القرن الماضي، وعادت لتتجدد في الحاضر مع رجوع الاثنين من الغربة والاستقرار في أرض البلد، زمن الاحتلال، وقد باتا كهلين في سبعينيات العمر ولم يبق لديهما من الوقت أو الحشاشة ما يمكنهما من استعادة جذوة الماضي الجميل وعنفوانه، لكنهما، من خلال التذكار وصور الماضي يستعيدان زوايا ومنعطفات وإضاءات تجعلنا نعيش من خلالهما تلك الأيام، أيام الحب الأول والرومانس، وأيام الثورة والبطولة والعنفوان، ثم الخيبة والهزيمة وأفول الحماس، فنكتشف أن الحاضر، والوجه البشع للاحتلال، ما هما إلا امتداد للماضي، وما أهملناه.

لكن الصورة ليست قاتمة ولا قبيحة كما تبدو، فالرواية تنداح وتتمدد وتنفرش على الجمال الساحر لبلدنا، بمرتفعاتها الجبلية وغاباتها الخضراء، وأحراش الصنوبر واللزاب، ومغر ومحاجر ومخابئ للثورة والثوار، فندخل معهم في عمق التجربة الحسينية، أي تجربة المناضل والشاعر عبد القادر الحسيني، فنكتشف وجها لبطولة لم نعرفها إلا بغموض وسطحية، ونرى من خلالها، بل نتبين، أن الانتصار كان على بعد خطوات ومرمى حجر لولا الفقر والتخلف الجماعي وسوء الأوضاع العربية، فضاعت الفرصة من أيدينا بسقوط القائد والقسطل، فسقوط القدس، ثم فلسطين، ومن ثم الهزيمة العربية.

سحر خليفة

التتمّة ص 31

سحر خليفة

– من أهم الروائيين الفلسطينيين. حاصلة على شهادة دكتوراه من جامعة أيوا الأمريكية في دراسات المرأة والأدب الأمريكي. كتبت حتى الآن عشر روايات، كلها تتناول الوضع الفلسطيني تحت الاحتلال وأحدثت صدى كبيرا بسبب دفاعها عن حرية المواطن الفلسطيني تحت الاحتلال، والمواطن العربي من الأنظمة الرجعية، وحرية المرأة وقضايا المجتمع. نالت العديد من الجوائز العربية والعالمية أهمها: جائزة البرتو مورافيا للأدب المترجم للإيطالية، جائزة ثيرفانتس للأدب المترجم للإسبانية، جائزة نجيب محفوظ عن روايتها **صورة وأيقونة وعهد قديم**، وجائزة سيمون دي بوفوار التي رفضتها لأسباب وطنية. في أعمالها الروائية تعبر عن إيمانها العميق بأن وعي المرأة النسوي هو جزء لا يتجزأ من وعيها السياسي ، وهي ترينا في رواياتها، وبأسلوب فني مقنع، أن نضال المرأة العربية والمحن التي تمر بها هي جزء من النضال السياسي العام من أجل التغيير والتحرير.

– أسلوبها الروائي حساس ومقتصد وشفاف؛ ورغم أنها تكتب بالعربية الفصيحة، فإن لها قدرة عجيبة على استعارة العامية الفلسطينية وتعبيراتها الدارجة عندما يقتضي حال الحوار في الرواية.

– أصدرت الروايات التالية، وجميعها عن دار الآداب – بيروت: **لم نعد جواري لكم** (1974)، **الصبار** (1976)، **عباد الشمس** (1980)، **مذكرات امرأة غير واقعية** (1986)، **باب الساحة** (1990)، **الميراث** (1997)، **صورة وأيقونة وعهد قديم** (2002)، **ربيع حار** (2004)، **أصلٌ وفصل** (2009)، **وحبي الأول** (2010). ترجمت معظم رواياتها إلى 15 لغة عالمية.

الفنان الراحل إسماعيل شمّوط

– ولد إسماعيل شموط عام 1930 في مدينة اللد لعائلة متوسطة الحال. عام 1948 لجأ إسماعيل مع عائلته إلى مخيم اللاجئين في خان يونس بقطاع غزة، وقد توفي أخوه الصغير توفيق عطشا أثناء الهجرة مما جعله يرسم لوحة **العطش** في الخمسينيات، وكانت للنكبة التأثير الأكبر في حياته وعلى توجهه الفني.

– في المخيم عمل بائعا للحلويات مدة عام ثم مدرسا متطوعا في مدارس اللاجئين. التحق بكلية الفنون الجميلة في القاهرة وأثناء تعليمه عمل في رسم الإعلانات السينمائية. عام 1954 أقام معرضا بالقاهرة بمشاركة زميلته تمام الأكحل والفنان الفلسطيني نهاد سباسي تحت رعاية الرئيس المصري جمال عبد الناصر وكان المعرض بعنوان "اللاجئ الفلسطيني." بعد المعرض حصل على منحة دراسية من الحكومة الإيطالية للالتحاق بأكاديمية الفنون الجميلة بروما، وبعدها انتقل إلى بيروت حيث أقام مرسما للرسم والإعلان التجاري وتصميم أغلفة الكتب وعاش من رسم الأغلفة وما يرسمه للصحف والمجلات.

– بادر مع عدد من التشكيليين الفلسطينيين إلى تأسيس أول اتحاد للفنانين التشكيليين الفلسطينيين وانتخب أول أمين له عام 1971. عام 1983 بُعيد الاجتياح الإسرائيلي للبنان نزح مع عائلته إلى الكويت. وبعد اندلاع حرب الخليج الثانية عام 1992 انتقل إلى كولون في ألمانيا ثم استقر في عمان – الأردن منذ عام 1994 حتى وفاته في 3 يوليو 2006 في ألمانيا بعد أن خضع لعملية جراحية في القلب.

– أرخ إسماعيل شموط للفن التشكيلي الفلسطيني ونشر عدة كتب أهمها: **الفنان الفلسطيني، فلسطين صور تأريخ وسياسة، فن وطني فلسطيني، فلسطين في المنظور، والفن التشكيلي في فلسطين.**

الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI AL JABER FOUNDATION

المؤسس
شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي
ندى دلّال دوغان

سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

المحرر الأدبي
محمد مظلوم

المَقَّر
بيروت، لبنان
يصدر بالتعاون مع وزارة الثقافة

تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المطبعة
پول ناسيميان

الإستشارات القانونية
"القوتلي ومشاركوه – محامون"

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر

كتاب في جريدة
سنتر دلّفن، الطابق السادس
شارع شوران، الروشة
بيروت، لبنان
تلفون/ فاكس 835 868 1(0) 961+
kitabfj@cyberia.net.lb
kitabfijarida@hotmail.com

عدد رقم 158
(5 **تشرين الأول** 2011)

صدرت الطبعة الأولى لرواية "حبي الأول" عن دار الآداب – بيروت عام 2010

الصحف الشريكة

الأحداث – الخرطوم
الأيام – رام اللّه
الأيام – المنامة
البلد – بيروت
تشرين – دمشق
الثورة – صنعاء
الخليج – الإمارات
الدستور – عمّان
الرأي – عمّان
الراية – الدوحة
الرياض– الرياض
الشعب– الجزائر
الشعب– نواكشوط
الشمس– طرابلس الغرب
الصباح– بغداد
العرب– تونس، طرابلس الغرب ولندن
مجلة العربي – الكويت
القاهرة – القاهرة
القدس العربي – لندن
الوطن – مسقط

الهيئة الإستشارية

أدونيس
أحمد الصيّاد
أحمد بن عثمان التويجري
أحمد ولد عبد القادر
جابر عصفور
جودت فخر الدين
سيد ياسين
عبد اللّه الغذامي
عبد اللّه يتيم
عبد العزيز المقالح
عبد الغفار حسين
عبد الوهاب بو حديبة
فريال غزول
محمد ربيع
مهدي الحافظ
ناصر الظاهري
ناصر العثمان
نهاد ابراهيم باشا
هشام نشّابة
يمنى العيد

خضع ترتيب أسماء الهيئة الإستشارية والصحف للتسلسل الألفبائي حسب الاسم الأول.

حبي الأول

"مقتطفات"

الجزء الأول

أعود اليوم لدار العيلة لأقوم بإصلاح ما تصدع ونخره السوس، وأجعل من الدار، دار العيلة، مكانا يُسكن، شيئا يذكر وله تاريخ. ما عدت أطيق جو الغربة والطيارات والمطارات والبدء من جديد في كل مكان أذهب إليه. هناك عمان، قبلها بيروت، ثم لندن، ثم باريس وواشنطن، ثم المغرب، وأخيرا جئت الى الضفة. شيء مزعج أن تحس أنك طرد آدمي متنقل في كل مطار. ما أن تستقر في مكان ما حتى ترحل. تبدأ من جديد، وما أن تبدأ باعتياد الجو حتى تنتقل إلى آخر، وآخر، وإلى آخره بلا نهاية، وبلا تحديد.

في هذه الدار ولدت أنا. على هذه الدار مرت أجيال، ومر احتلال وعواصف وزلزال رهيب جعل مدينتنا مقلوبة، رأسها لتحت وأرجلها لفوق وحولها دمار وشظايا وغبار كثيف. وكذا الاحتلال، مثل الزلزال، وكذا الهجران والوحشة، وبقايا أهل هجروها وغابوا عنها، رحلوا عنها، همدوا، ماتوا، باتوا ذكرى في زمن عتيق متقطع، مثل سفرنا، يعني رحلات، يعني مراحل، وطرد آدمي متنقل عبر محطات وقطارات ومطارات، ومراحل.

أنا كنت هنا منذ التاريخ، أقصد سنوات جرارة، خمسون سنة، ستون سنة، لا فرق كبير في عمر الزمن، أما الإنسان، فأنا نقطة، بل فاصلة في سطر جديد وفقرة جديدة. لكن ما كتب من الأول، في أول سطر يبقى معنا مثل التاريخ، والذكريات، والطفولة وصورنا القديمة قبل التجاعيد وانحدار الخطوط في سحنتنا وأفول اللمعة من العينين.

في هذا الجو من كان هنا؟ من ظل هنا؟ لم يبق أحد إلا سافر، هاجر، ولّى، أضحى ذكرى. وأنا أعود بعد كل السنين لأصلح ما اهترأ وتصدع بعد الزلزال، وقبل الزلزال، وأعيد الى الدار بعض الرونق، وأزيل الغبار.

×××××

أسموني نضال لأن اسمي كان التعبير عن المرحلة، ثم مراحل. من أسماني؟ أمي كانت بعد صغيرة، وبعد محزونة ومشغولة بهم أكبر. ستي موزعة حائرة بين ابنتها وابن أخيها. خالي وحيد كان مع الثورة والثوار . من ظل إذن؟ خالي أمين المتعلم، قالوا "شيوعي" وقالوا "بعثي" وقومي سوري". ما عدت أذكر بالتحديد، لم أعرف قط. هرب إلى الشام ثم بيروت والتصق هناك، يعني هاجر، مثلي أنا، لكني عدت لأستقر على سكن، جزء من وطن، وأموت هنا كما يموت البعير. من أين جاء هذا التعبير "كما يموت البعير؟" خالد ابن الوليد؟ عمرو بن العاص أم صلاح الدين؟ كل الأسماء لها تاريخ إلا أسمي لأنه فعل ناقص مثل كان وما زال وما انفك، فعل ناقص. وكأن النضال لا يتأتى إلا بالعنف! وكأن العنف لا يتأتى إلا بالسيف والبارودة وزرع الألغام!

أنا ما ورثت إلا أسمي، فعل ناقص، وحملت بدل البارودة وزرع الألغام ريشة صغيرة فرسمت الدار، دار العيلة، وصور الأحياء والطبيعة، وخان التجار. قالوا من الصغر أنا فنانة، فصدقت الفن واعتنقته وحملته بصمة على جبيني. باطحت الدنيا كي أحمل ريشة صغيرة فيها ألوان وموسيقى وضوء ونسائم ومواويل. رسمت الجدة ورسمت البحر، رسمت الجبل ورسمت النهر، رسمت النساء في كل وضع يخطر بالبال، نساء ورجال ومواسم من غير حصاد في أرض بور. رسمت الزرع ورسمت الزهر ورسمت طبيعة صامتة فوق أرضية لا توحي بجمال الزهر. حملت لوحاتي ودرت بها في كل مكان. أقمت معارض وأتيلييهات ورسمت للصحف والمجلات ولدي الآن لوحة ضخمة في اليونيسكو وأخرى أضخم في اليونيفام وثالثة أصغر، صغيرة جدا، بممر الجامعة العربية. أنا فنانة، هذا ما يقال وهذا ما صرت وعلى هذا أموت. لكني الآن، في هذا العمر، وبعد الدوران مثل النحلة، وبعد الصخب وكل الأضواء، وبعد الإعلام والمانشيتات وأغلفة الصحف والإعلانات، أجد نفسي الآن بلا صاحب وبلا مأوى. بقيت مثل السيف فردا. إن كان الأهل رحلوا مثلي، وأنا رحلت مثل الباقين، من ظل هنا؟ ما ظل هنا سوى هذي الدار. لهذا عدت، هنا من جديد، لأجعل من الدار، دار العيلة، بيتي الأول هو بيتي الأخير، جاليري، متحف، صور ورسوم وبراويز، مثل المعرض.

جاء النجار وقال الخشب نخره السوس فقلت بدّله. جاء الحداد وقال الحديد أكله الصدأ فقلت جدده. جاء المواسيرجي وقال المواسير مخرومة، موضة قديمة، وكذا الحمام والمطبخ. قلت اخلع، كسّر، اقدح، كل المنخور والمكسور والمعثث انزله لتحت. وجاء البليط والزجّاج والمهندس وبياع العفش المستعمل فقلت احمل، لا تبق لي إلا الهيكل وبيرو ستي وكانون النحاس وبعض اللوحات.

بدأ العمل كخلية نحل وأنا انزويت في العلية آكل وأنام في العلية وأرتب أوراق الأهل والرسائل في صناديق تلو صناديق. كم تركوا لي من وثائق وصور ورسائل ومفاتيح! وكم وجدت في الأدراج والخزائن صورا وبقايا وتذكارات وقصائد مخطوطة لم تنشر! بجوار اسمي، هذا ما ورثت من العيلة، قصصا وقصائد منسية ودارا وذاكرة مهجورة.

×××××

ناداني الدهان:

– يا ست نضال، هذي اللوحة لازم تنزل.

دخلت الغرفة، غرفة خالي، خالي أمين المثقف، ابن الأحزاب ، شرّاء الكتب والمجلات، فوجدت الأرض مليئة بالكتب والجرائد والمنشورات، وقصاصات من تلك الصحف القديمة: صور ورسوم ومانشيتات. "الانجليز ينوون الرحيل،" "لجان التحقيق فشلت وخابت،" "المفتي صرح من منفاه،" "والنشاشيبي ينفي التصريح."

حملت اللوحة، وذهبت بها الى العلية حيث أنام وأقوم وأعيش الزمن من الأول، من خلال أوراق ورسائل ومقالات لم تنشر بعد.

وضعت اللوحة فوق صناديق الأوراق والصور والتذكارات وجلست على السرير ثم تمددت، وسرحت بنظري في اللوحة، لوحة عيبال، وحرش الصنوبر في القمة فوق المحاجر وشيخ العماد. حين رسمت تلك اللوحة كنت في الحادية عشرة، وقد أصبحت فنانة، بل هاوية، برغم هاوية، أرسم لوحات بالطبشور وألوان الماء. لم أكن بعد قد تمرست بخلط الألوان. لم أكن انتقلت لدهان الزيت. تلك اللوحة، لوحة عيبال، كانت مرسومة بألوان الماء، وكانت ألوانها قد بدأت تخبو وتغيم وكأن الزمن فعل باللوحة ما حل بنا، بدأنا نخبو والثورة تغيم. لكن هل غامت أو غابت؟ مثل الساعة، تبدأ من فوق، ثم تنزل تحت، وتعود ثانية للأعلى، وبلا توقيت!

بدأت أرسم من الواقع، ستي، أمي، شجر الخشخاش والياسمينة وقطة بيضاء تنام بهدوء تحت الشجرة ثم عيبال، وحرش الصنوبر في القمة حيث التقينا أنا وستي بخالي ومجموعة من الثوار، كما التقيت بحبي الأول، الولد – الشاب ابن القرية بقمة عيبال. في ذاك الوقت، كانت الثورة قد هدأت، أو انهدت من داخلها، ومن الخارج. بدأت حلوة، قوية، نقية ثم اندثرت. وفي ذاك الوقت، حين كانت ما زالت نقية، التقينا في الحرش، فوق القمة، خالي ومجموعة من الثوار، وحبي الأول.

أراها الآن فوق الصناديق المحشوة بأوراق العائلة والرسائل، وقصائد خالي المنسية، فتمثل لي زمنا ولّى وما زال يدور عقرب ساعة، يبدأ من فوق وينزل لتحت ثم يرتفع الى القمة، إلى رقم 12، وأنا أنتظر وأتأمل وخيالي يدور وذاكرتي تجعلني أغوص وأتوغل في ذاك الحرش، قبل أن أوغل في الذكرى، والحب البعيد، حبي لأول.

×××××

في ذاك الحرش التقينا، أنا في بداية مراهقتي، وحبي الأول أكبر مني، أكبر بقليل. في ذاك العصر، وبعد الغداء، سمعنا انفجارات بعيدة. هرعنا الى الخارج كي نعرف. رأينا شابا يأتي من الغرب، يركض ركضا، والحطة تموج وترفرف حول رأسه، وحين وصلنا سمعنا لهاثه وكان مخيفا، يلهث ويزمجر مثل الثور ويلوح بيديه ويقول كلاما لم نفهمه. كل ما فهمناه كان شذرات: روحوا، الإنجليز، يا الله روحوا!

كان الأولاد قد توقفوا عن اللعب ووقفوا على بعد مسافة أمتار وقد علت وجوههم سيماء الجد، بدت وجوههم مثل الكبار، جامدة خائفة تترقب. ولم تمض سوى دقائق معدودات حتى رأينا طيارة، ثم اثنتين، ثم ثلاثة، تحوم وتدور فوق الجبال المحيطة ثم تصلنا فتدور وتلف حول عصيرة وكروم العنب والزيتون.

حين ابتعدت الطائرات وخفتت الأصوات والحركة، بدت القرية شبه خالية من السكان. كل الرجال المسنين توجهوا نحو الجامع، والنساء دخلن بيوتهن، وأبواب الدكاكين أقفلت ولم يبق أحد في وسط البلد وأمام الدور والحواكير، وبدت القرية أشبه ما تكون بمقبرة هامدة تخلو من الحركة والسكان.

أطل ولد طويل نحيف، أكبر من ولد، وأصغر من شاب، ووقف في الباب ونادى: ستي! وحين رآنا أجفل وارتد خطوة الى الوراء فصاحت جدته تناديه:

– تعال يا ربيع.

التفت إلينا، ورأيت عينيه مثل قمرين أخضرين في وجه شبيه بوجوه البنات، أملس، أمرد، إلا من زغب فوق الفم. وافترت شفتاه عن بسمة فبدت أسنانه لامعة في ضوء الشمس، بيضاء ناصعة ببياض الثلج، وشعره قريب من الأشقر، محلوق نمرة 2، أقرب الى أقرع أو فروة كلب. كان جميلا، طويلا نحيلا ومثيرا فبدأت أحس بشيء يطفح داخل صدري كفوار ماء، ماء ساخن، دفاق، يرسل موجات تلو موجات ترتفع وتصل حتى رأسي، ووجهي يصير كرغيف خبز خرج من النار.

كنت ما زلت صغيرة وأقترب بخطى سريعة نحو البلوغ، لكني أحسست لأول مرة، أن هذا الولد، أو هذا الشاب، أهم بكثير من أي نجم في السينما، أحلى وأروع، أقرب وأبعد، أكاد ألمسه بيدي هذه وهو عني بعيد، فبدأت أعي حرقة الإحساس بالرغبة في عمر صغير.

كان خلفي، قريبا من الباب، لكني أحس بوجوده وأكاد أسمع أنفاسه وقلبي يدق وأنفاسي تعلو وتهبط على أنفاسه. هل كان يحس بوجودي كما كنت أحس؟ أنا لا أعرف. أنا حتى الآن لا أعرف. أنا لم أسأله. لكنا قلنا ما يكفي بعد ذاك الحصار، أي بعد سنين، وكأن السنين ترجع للخلف. وكأني الآن في تلك السنين! وكأن من كان هو الأول سيكون الأخير!

×××××

الولد الشاب طيّر عقلي، استولى علي. ما عدت أرى إلا خياله ولا أسمع سوى رنة صوته. أوصلنا الدار وفارقنا لكن عيونه ظلت معي كغمامة زرقاء ترافقني وتحاصرني وتجعلني أهيم كالمذهولة. ما عاد في الدنيا ما هو أهم من رؤيته والتنفس مع أنفاسه. هكذا فجأة، انقلبت الدنيا وانقلبت أنا وما عدت أفهم عن الرحلة وسبب الرحلة سوى أن سرا إلهيا جاء بنا الى هذا المكان، قمة عيبال، فوق الأشواك والطرق الوعرة والصبار حتى التقي بمن أيقظني كما أيقظ الأمير الجميلة النائمة في بيت الزجاج وجعل منها مليكة قلبه وعروس الجن. بت أنا هي ست الحسن، ملاك يطير، جنية زرقاء سماوية تعيش في دنيا وردية بعيدا عن الآخرين بمشاكلهم ومآسيهم وتنأى عنهم كي تحظى في خلوتها بخيال يتراءى خلف السور، من بين الشجر، من الشباك، من خلف الباب.

تركت الدار وخرجت الى الشارع أبحث عنه بين المارة، بين الأولاد، تحت الشجر أو هناك في البعد عند المسجد ودار المختار. ولم أجد في الشارع المحفّر والمترب إلا الهدوء والسكينة وقد خلت الأماكن من الحركة بسبب ما حدث في المدينة، والطيارات، وغروب نزل على القرية وألبسها غمامة سحرية فيها ظلال وروائح تنز وتنثال من الطابون والزبل الحار ورذاذ الغبار. كان الأولاد قد تركوا خلفهم حجارة مرصوصة على شكل أعمدة صغيرة وكرات صنعت من القماش، وآثار لعبتهم مع الطيارة اللعينة، وما خلفته تلك اللعبة من رشق وتراكض ونعف غبار. وبدا المكان موحشا حزينا، لكني كنت مأخوذة بإحساسي ومخيلتي ونظرة عينيه.

في ذاك المساء، في عز النوم، أحسست بيد تربت كتفي وستي تقول بصوت هامس: قومي يا ستي، قومي بلا صوت وبلا حركة.

سمعت صوته يستعجلنا: يا الله يا جماعة تأخرنا!

صوته هو، أنا لا أخطئه حتى ولو بعد مليون سنة، غنته هو، نغمته هو، وبعض الحروف من أنفه. فقمت بسرعة كالملدوغة ونفضت ثوبي المجعد وشرائط شعري المدعوكة وتحسست شعري وعيني من بعد النوم، شيء مذهل، هو من يأخذنا الى خالي في هذا الليل!

مشينا في الليل، والقمر يضيء مسالكنا، والحصى يجرش تحت أقدامنا يخدش الصمت، وبعض الديوك تكاكي للفجر وأنا وستي، يدا بيد، وهو أمامي، يمشي بسرعة ويتلفت، يستعجلنا، ثم يعود لنفس السرعة، من غير صوت، وكأن الحصى يتقصدنا وينساه هو، والقمر يضيء يانس ستي ولون قميصه، وأنا أسير كالمأخوذة في ذاك الجو، وذاك الإحساس باللهفة والانتظار لما سيأتي، فإلى أين نسير؟ ومتى سنصل؟ وهل يظل ربيع معنا؟ وهل ربيع مثل الثوار؟ وأحسست بشيء من الاعتزاز وكثير من الخوف لأن وجوده مع خالي يعني أقرب، أقرب مني، أقرب من خالي ومن ستي، وفي نفس الوقت يعني أصعب لأنه محفوف بالأخطار وعمل الثوار، وهذا الجبل. بعد نصف ساعة أو أكثر وصلنا الحرش. كان يرتدي بنطلونا كاكيا وقميصا أبيض، وحول عنقه، حطة منقطة بالأسود. كان يبدو مختلفا عن يوم الأمس، بدا أكبر، حركاته فيها جدية وصوته في الصبح بدا أخشن. فأحسست بغربته عني واعتراني الخوف من ألا ينتبه إلي أو لا أعجبه.

وصلنا الحرش وكان محاطا بسلسلة حجارة مقتلعة من أرض الجبل، أي كالسلاسل المعهودة التي تحيط بكروم العنب وتحدد أراضي الفلاحين. وخلف السلسلة رأيت رجلين ملفعين بحطط الثوار، أو هكذا بتنا نتعارف على الحطة، أن الحطة رمز الثوار، فاقتدى الناس بالحطة واعتمدوها بدل الطربوش، وبات الإنجليز لا يعرفون من الثائر من بين الناس لأن الجميع هجروا الطربوش.

دخلنا ممرا ترابيا بين الصخور وشجر اللزاب، وكانت أشجاره عالية تحتها بلوط وفستق حلبي وجفنات عنب بين الجذوع وأعشاب البر. وكانت رائحة الشجر ونثيث الصنوبر والطيون تملأ الجو بعطر مسكر جعل الدنيا تبدو أحلى من واقعها. فها نحن ندخل في القمقم، عرين الثوار، حيث الإنجليز ضربوا الأشجار وحرقوها بحثا عنهم. ورأينا أشجارا محروقة وأخرى مخلوعة ومرصوصة بشكل حواجز، ورجالا منثورين بين الصخور وتحت البلوط. وكانوا جميعا بحطط بيضاء أو منقطة وملابس كاكية أو سوداء.

بين الأشجار، تحت رف حجري على هضبة صغيرة صخرية تعشش فوقها أغصان المدادة البرية رأينا مغارة مربعة الشكل، مما ورثناه عن الرومان أو اليونان، ومما نراه في كل مكان في البرية، وعلى باب المغارة وقف اثنان بالحطط والكاكي وأحزمة الرصاص. قال أحدهم دون أن ينظر إلينا: تأخرتوا. فلم يجبه ربيع والتفت إلينا وقال لنا وهو يطأطىء: وطوا روسكم، فطأطأنا ودخلنا المغارة بصمت تام.

المغارة واسعة كغرفة كبيرة، سقفها عال، أرضها ملساء، وجدرانها تبدو منحوتة كما لو كانت مصنفرة لتصبح سكنا شبيها بالبيت. وكان في السقف قنديل لوكس أبو طربوش مما نضيء به دورنا، وبجوار الجدار فراش ملفوف ومكوم وإبريق شاي وأواني طعام، وكلها سوداء مشحّرة بشحار الحطب وبابور كاز معطوب الرأس. أما الرائحة فكانت مزيجا من الميرمية والنوم والعفن والطحالب وأحذية الرجال.

جلسنا على كوم الفراش بانتظاره، وجلس ربيع على الأرض بعيدا عنا مسافة خطوات قرب المدخل، وعقد ذراعيه على ركبتيه. كان النهار قد بدأ يضيء في الخارج ويجعل من باب المغارة طاقة نور. لهذا حين دخل خالي لم نتبين إلا شبحا كأشباح الرجال، دون تمييز، لأنه بالكاكي والحطة وجاكيت منفوخ جعله يبدو مربوعا بدون

ملامح.

وقفت ستي لأنها عرفته رغم شكله، ولم تقل شيئا بل فتحت ذراعيها ولفتهما حول عنقه فبدت أقصر، وبدا أطول، وظل الاثنان بلا حركة سوى صوت النفس واحتكاك القماش ونحنحة الرجال من الخارج.

سمعته يقول فوق رأسي: كم كبرت نضال! كما لو كان يتأسف لأني كبرت بعيدا عنه. فقالت ستي بصوت مبحوح: ونحن كبرنا!

لمحت ربيع ينزل رأسه على ركبتيه كأنه يحمي وجهه، وربما عينيه، حتى لا نرى أنه مثلي، ما زال صغيرا ويتأثر.

×××××

أجلس الآن أمام اللوحات وأتذكر. لوحة الحرش وشيخ العماد، لوحة زواتا وكريات أهرون، ثم صانور ومرج الزنبق. كنت قد بلغت وأصبحت صبية، وربيع مثلي كبر وامتلأ وأصبح يقول أحلى الكلمات. صار يقول إني حلوة. صار يقول انه مشتاق حين نفترق أكثر من شهر أو من أسبوع. صار يقول: إذا انتهت الحرب وخلصنا أخطبك من أهلك ونتزوج، معقول ستك ترضى عني؟ معقول أمك؟ معقول خالك؟ معقول نابلس وعيلة قحطان؟ فأقول له وأنا أضحك: ول يا زلمة!! (يكون سعيدا حين أناديه يا زلمة أو يا ختيار.) أقول له وأنا أضحك: ستي تقول بمعزّة نضال، وخالي يقول أنك ابنه، وخالي أمين يقول البلد للفلاحين. يضحك ويقول: وتكوني فلاحة يا مدنية؟! لا أجيب، لكني أحس أن الدنيا ربيعا بربيع.

أنظر في عينيه الخضراوين وأرى حقول القمح والبابونج، رائحة الزعتر والطيون، عطر الميرمية والريحان، غيوم الصنوبر واللزاب وأعشاش الدوري والشنار تختبئ عميقا بين الغيوم. غيوم خضراء كقطن مندوف لونه أخضر على خلفية مثل الساتان. يقول بدهشة: غيوم خضراء والسما ساتان؟! أما غريبة! فأقول لنفسي إن الحب أغرب الأشياء على وجه الأرض. لماذا أرى الدنيا حلوة رغم الأحزان وآفات الحرب؟ لماذا أحس أني سعيدة مع أن الناس في أبأس حال؟ لماذا أنسى أنه مسكين بلا تعليم ولا شهادة وبلا مهنة وأيضا بلا أرض يزرعها ولا حاكورة مع أنه فلاح ابن فلاح وأمه تعيش كالفلاحين في بيت من لِبن وتبيع العلت والخبيزة؟ أمه تقوم بترويب اللبن وحلب الغنم وتبيع اللبن بالبقلولة وأنا سأكون مثل أمه ومثل سته أم نايف أروّب اللبن وأحلب الغنم وأخبز عجيني بالطابون؟ لكن الحب شيء خارق، وكذا الثورة شيء أخرق! على مر الأيام والمراحل كنا نظن أن الثورة كلهيب الحب، ستجعل منا أحلى وأحنّ. لكن الحب شيء آخر، فيه أنغام، فيه انسجام وتجلي ما بين الجسم وحنان القلب.

قال ربيع ان الثورة أحلى من الحب فغضبت منه لأن الحب لا شيء في الدنيا يعلو عليه. الحب جمال، الحب دفء، الحب نسيم في عز الصيف، الحب قدرة على الأحلام. قال بعناد: وكذا الثورة. قلت الثورة تبعدني عنك. قلت الثورة تبعد خالي عن خالي أمين وتبعد الإثنين عن ستي وعن أمي وداد. قلت الثورة بعّدت القدس عن نابلس. زعماء القدس قالوا ثورة وزعماء نابلس قالوا ثورة واحترنا يا ناس بين الثوار! من منهم ثار ومن منهم فر ومن منهم تخلى عن الثوار؟ سأل بتكشيرة ووجه مقلوب: قصدك أبي والا أبوك؟ فتخاصمنا.

غاب عنا عدة أسابيع حتى أقنعت ستي وأمي بزيارة خالي في صانور. قلت لستي الدنيا ربيع وبركة صانور صارت لوحة فيها زنبق كنجوم السماء ومروج القطن، والفرس الشهباء ولدت مهرة، والناس هناك في هذا الجو صاروا أكرم لأن الطبيعة والأعشاب والخبيزة وحليب النعاج وفقس الصيصان جعلوا من الناس أغنى وأكرم، يعني مسخن، وجبنة طرية وزبدة بيضاء وخبز الطابون. فقالت ستي، آوالله صحيح، الفرس الشهباء ولدت مهرة، والدنيا ربيع، يا الله نسرح.

×××××

وصلنا صانور فرأينا البحيرة كما وُصفت. مرج من الزنبق الأبيض على وجه الماء تمتد لمئات الدونمات. الأرض سهلية وغروية، تتجمع الأمطار في شبه بحيرة شتوية تصبح مرتعا للزنبق البري والسوسن ورفوف الفراش. من البعد ظنناها مرجا للقطن، لكن ربيع كان وصفها وأجاد الوصف. فنبهت ستي الى أن ما نراه ليس قطنا، بل هو نعمة من نعم الطبيعة على بلدنا وتشبع الأرض بماء السماء.

أقبل ربيع فطلب منه خالي أن يأخذنا الى بيته. هللت ستي لسماعها كلمة "بيت" بدلا من مغارة أو حرش أو محجر لأن ذاك دليل على أن ابنها قد بدأ يعيش، ينام على سرير حقيقي ويأكل طعاما مطبوخا ويستحم ويحلق ذقنه. لكنها فوجئت بالشابين يتحدثان بجدية ويتصرفان بطريقة أبعد ما تكون عن الفرح بلقائنا في يوم ربيعي مشرق يصلح للنزهة والانبساط. والغريب في الأمر أن الإثنين واصلا طريقهما وابتعدا باتجاه القرية من جهة الشرق.

أدخلنا ربيع دارا ريفية وسط مزرعة تبدو مهملة مهجورة، أرضها مليئة بالعوسج وأعشاب البر. الدار الريفية، كما قال لنا، كانت لثري لبناني باع أرضا لمستعمرة اليهود وهرب من فلسطين خوفا من ملاحقة الثوار. مجموعة خالي استولت على مزرعة اللبناني وبيوت المزارعين وإسطبل الخيل. الرجال أقاموا في بيوت المزارعين، وخالي أقام في الدار وبدأ يخطط للاستقرار بشكل دائم.

تسللت أبحث عن ربيع. وجدته في الإسطبل الضخم يرعى الشهباء ومهرتها مستبدلا الماء بماء نظيف ومضيفا للجرن مزيدا من العلف وأوراق الخضار.

لم يبد على ربيع الفرح بلقائي وأنا التي حلمت بذاك اللقاء طوال أسابيع. كان ذاهلا متكدرا يجيب على أسئلتي بشكل مقتضب فاتر ولا يكف عن الحركة بين أكياس العلف وجرن الماء. كان يبدو منشغل البال بأمر مقلق جعلني أشك أن في الأمر سرا غريبا جعلهم جميعا جديين وبذاك الوجوم.

حين واجهت ربيع بشكوكي لم يخف الأمر. قال إنهم جميعا ليسوا على ما يرام لأن الأوضاع العامة جعلت مجموعة خالي تفكر بالاندثار. بعد استشهاد أبو طير، وهو الخامس ممن استشهدوا في المجموعة، وآخرون هربوا لقراهم أو التحقوا بقطاع الطرق أمثال أبو جلدة والزيبق، لم يبق من الرجال إلا نفر قليل غير مؤهلين لمواصلة القتال.

بصوت خفيض أعدت عليه ما كان الناس يقولونه عن تدهور الأوضاع، وما كان خالي أمين يكتب عنه ويقول إن الثورة عادت لتكرر نفس الأخطاء. خالي أمين كتب وآخرون كتبوا وقالوا إن ما حدث في ثورة 29 أعيد ثانية في ثورة 36 وها هو يعاد في نهاية 39. وأنهيت كلامي بأن تساءلت عما إذا كان صحيحا ما كتبوه وما إذا كان صحيحا أنهم عادوا يكررون نفس الأخطاء!

التفت إلي. نظر إلي نظرة طويلة أبعد ما تكون عن الحنان والمحبة، كما لو كان يكرهني، كما لو كان يتهمني، كما لو كان يتأملني لأول مرة ويرى في وجهي ما لا يعجبه. أخيرا قال باقتضاب شديد، وكأنه يسمّع درسا، إنه حين التحق بالثورة كان يظن أن الثورة ستحرر البلد من الإنجليز ومستعمرات اليهود وسيعيش الناس في بحبوحة فيتمكن هو من شراء أرض يزرع فيها ويبني بيتا ويكوّن نفسه ويصبح رجلا. لكنه الآن وفي هذه الحال، وخالي سيتزوج ويستقر وينسى الثورة، وأيضا ينساه، وأفراد المجموعة كل سيعود الى دنياه وعائلته، فما نفع البقاء. هو الآن، وقد بقي وحيدا منسيا، من أين يعيش وكيف يعيش؟ ما المستقبل؟ أهناك أمل في مستقبل؟

في المساء عدت أبحث عنه ولم أجده. توغلت في المزرعة وكروم العنب ولم أجده. خرجت من المزرعة وضربت الخطى وأنا أهيم على وجهي وإحساس بالضياع يلازمني. إحساس بالذنب تملكني، وإحساس بالفجيعة والذهول

قاد خطواتي الى المجهول. أخيرا استفقت ووجدتني أقف على هضبة تطل على صانور وتكشفها. المزرعة والدار وكروم العنب وبحيرة الزنبق والأفق الغربي وقد بدأ يحمر مع غياب الشمس يشكل لوحة لن أنساها أبدا ما حييت. جلست على صخرة أتأمل المشهد وأراجع الصور في مخيلتي وأحس بقلبي ينوء بما أحسست وما أضعت وندمت عليه. كنت قد بدأت أفقد براءتي ورهافتي، وقبل عمري أكبر وأشيخ.

جلست على الصخرة أتأمل بحيرة الزنبق تتلون بألوان الشفق وسكون الكون وهدأة العصافير مع حلول المساء وأنا وحدي أبحث عن شيء، أبحث عن وجه، أبحث عن ذاتي في ذاتي. ماذا سأكون؟ ماذا أفعل؟ ماذا أحس؟ ما هو دوري؟ كم كنت هامة في نظري! كنت ما زلت بعد صبية، والدنيا تدور من حولي، أنا في المركز، أنا قطب الأرض.

سمعت عشبا يتقصف فالتفت للخلف. رأيته يجلس على صخرة خلفي تماما. كان يراقبني وأنا لا أراه. عشر خطوات أو أقل تفصلني عنه، ولم أحس بوجوده! ألأنه اعتاد التسلل؟ ألأنه تدرب على الاختباء؟ أم لأني أنا كنت منشغلة بإحساسي ولم أشعر به؟

تبادلنا نظرات غائمة. كان ما زال حرِنا مني، وأنا ما زلت مأخوذة بهدوء الكون وغروب الشمس وإحساس ساذج بأهميتي ودوري في الكون وبحثي عن ذاتي في ذاتي. انتظرت أن يتخلى عن موقعه ويقترب مني، لكنه ظل مكانه ينظر إلي وينتظر مني أن آتي إليه واعتذر منه. ربما أحس، حين تساءلت عمن المسؤول عن الأخطاء أني أتجنى وأتهمه. وربما أحس، وهو يشرح لي ضياع المستقبل والثورة، أني تخليت عن حبي لأنه ضاع وخيب أملي. وربما أحس أنه أضعف لأنه أفقر. وربما أحس أنه ذليل وأنا قوية. كل الشكوك ساورتني وأنا أراه لا يتحرك، والدنيا سكون والشمس تغيب.

أخيرا تنازلت عن موقعي واقتربت منه. وبدون كلام، أفسح لي مكانا قريبا منه على صخرته. جلست بصمت ومددت يدي أبحث عن يده فتلقاها ورفعها الى شفتيه وقبلها فأحسست دموعي تتدفق رغما عني. بدأت أنشج من أعماقي وأقول إن الله لن ينسانا لأنّا صغار وأبرياء ولم نفعل معصية ولا خطيئة. لماذا يا رب تعاقبنا؟ لماذا يا رب ترضى بالظلم؟ لماذا نعيش ونتعذب ونرى النكسات والفواجع ونسمع ونحس ونتألم ولا نستطيع أن نفعل شيئا ينقذنا من هذا الظلام؟ لماذا يا رب؟

التفت إليه وكان يبكي. يمسح دموعه بصمت وخجل ويدي ما زالت على شفتيه. دموعه تسيل على كفي وأحس بها تلسع جلدي وتحرق قلبي لأني أراه مثلي ضعيفا، أضعف مني. هكذا كنا، طائرين صغيرين حائرين ضائعين نبحث عن هدف وعن معنى ونحب الحياة، لكن الحياة أقسى وأظلم، فماذا نفعل؟

حاولت أن أواسيه وأعيد إليه الأمل والحماسة. قلت له إن ما حدث ليس نهاية الدنيا والكون لأن الأبناء سيأخذون مواقع الآباء. وواصلت كلامي بحرقة وحماس: البركة فيك وبأمثالك. أنا معك، سأكون معك لنعيش معا ونموت معا. سأكون معكم في الجبال والوديان وكهوف المحاجر والأحراش. سأكون معكم حتى الموت.

قلت ذلك وأنا أهتز من الحماسة والانفعال، فأمسك بيدي الاثنتين والتفت إلي بكامل وجهه وظلال الشمس الغاربة بدأت تسوّده، وقال كلاما لن أنساه. قال إن كلامي كلام عواطف. أمنيات قلب صبية صغيرة لا تعيش في الواقع بل بالأحلام. وسألني بجدية تكاد تنقلب الى سخرية: أنت في الجبال؟ أنت في الكهوف والمحاجر؟ هل تعرفين كيف كنا نعيش؟ هل تعرفين كيف نقاتل؟ هل تعرفين كيف نطارد؟ هل تعرفين أين كنا ننام وكيف ننام؟ كنا ننام على التراب بين الحشرات والزواحف، وأحيانا ننام ببطون خاوية بدون عشاء. هل تقدرين على ذلك؟ أن تكوني فردا منا؟ بعيدا عن الناس والأقارب؟ انحلت الثورة من الداخل، وما عاد بإمكاننا أن نتجمع. كل فرد منا بات يبحث عن مخرج لخلاصه. وأمثالي الآن بلا مخرج. لا مال ولا أرض ولا عمل ولا مستقبل. فماذا لدي لأعطيك؟ لا شيء لدي أعدك به لأقول بصدق انتظريني، كوني لي وانتظريني. وها أنا أقول لا تنتظري لأني سأهج من هذه الأرض وأبحث عن أرض تؤويني. أنا لا شيء، مجرد لا شيء.

قبل يدي يستسمحني. وضع رأسه في حضني وبكى علي وعلى نفسه، وهذه المرة بلا خجل. بكى وبكى وأنا بكيت وأنا أقسم أني لن أنساه طوال حياتي وسأظل وفية على عهدي ما ظل نفسٌ في صدري. سأظل له، وسأنتظره، ولن أكون لرجل غيره.

رفع رأسه ومسح دموعه وقال لي:

– أنت صغيرة.

قلت له وأنا أمسح دمعي بطرف ثوبي:

– وأنت صغير.

ابتسم بأسى وقال بحسرة:

– أنا صغير لكني كبير. بدأت أشيب وأنا أقل من العشرين، لكني تعلمت من الثورة. سأكافح في الدنيا حتى أصل، لكني الآن لا أعرف كيف. وأنت حياتك هي حياتك. لا شيء تغير في حياتك، دارك مدرستك وألوانك. كل ما أتمناه أن تكوني سعيدة بحياتك.

تشبثت به:

– لن أكون سعيدة بدون ربيع.

قبل يدي ثاني مرة وثالث مرة ثم جبيني، وسألني وهو يفارق:

– لن تنسيني؟

ضممت يدي إلى صدري وقلت كصلاة قدسية:

– كيف أنساك؟ أنت ربيعي!

الجزء الثاني

"طريق المحبة" وقفت فجأة وقال المذيع بعد دقائق من صمت مريب: خلل فني بسبب انفجار قطع الإرسال. فهرع النجار والحداد والكهربجي وهربوا من الدار. تركوا أدواتهم متناثرة في كل مكان وركضوا ليختبئوا في بيوتهم قبل الإغلاق ومنع التجول والتفتيش، وبقيت وحدي أتنقل بين الزوايا المهجورة والغرف الفارغة المدهونة وأعيد الأدوات لأماكنها وأعلّي صوت الموسيقى حتى أشعر أني في الدار لست وحيدة وأن الانفجار لا يعنيني.

لكن الطرق على البوابة الحديدية أخترق أذني رغم الجهاز المتطور ومخمل فيروز. فتحت البوابة وأنا أتوقع الأسوأ، وحمدا لله لم يكن الجيش ولا النجار كعادته ولا ياسمين. كان رجلا غريبا بسكسوكة، كبيرا بالسن، شعره أبيض، بنظارات طبية، وقميص أميركي بكاروهات وجينز أزرق لونه باهت، وهيئة تدل على أنه موظف أجنبي متطوع في إحدى المؤسسات الأوروبية التي تملأ البلد لتسعفنا، ولا تسعفنا، لكنها أفضل من لا شيء.

توقعت أن يمد يده باستمارة دراسة أو نشرة، لكنه لم يفعل، بل ظل يحدق في وجهي بنظرة غريبة كما لو كان يطلب شيئا ويخجل أن يقول. تذكرت الولد في الخزانة صاحب ياسمين، لكن هذا كبير بالسن وشكله لا يدل على رشق حجارة ومتراس وخزانة، شكله يمنحه الحصانة، كبير بالسن وسكسوكة وقميص أميركي ونظارة طبية، فماذا يريد؟

قال الرجل بصوت مألوف:

– تغيرت كثيرا يا نضال!

قلت بدهشة:

– إذن أنت ربيع!

من خلف النظارة رأيت عينيه هما عينيه، والغنة القديمة في صوته، وطوله القديم، أقصر بقليل، ربما أقصر لأني قصرت أنا أيضا بسبب الهشاشة وانضغاط المفاصل والغضاريف، أو ربما لأني كنت أراه في ذاك الوقت أطول بكثير. لكنه الآن في طولي أنا، وشعره أبيض وقد بدأ يخف، والنظارة، والقميص الأميركي وجينز راق، وحذاء كوتشوك يبدو ثمينا أو من البالات. لكن شكله لا يدل على

البالات أو عصيرة، ورائحة عطر رجولي من جفنشي أو أرماني، وأسنانه مشغولة بعناية لونها أبيض، ربما مصنوعة من الفينير أو الزركون.

ابتسم وقال:

– أظل في الباب؟

فتحت البوابة فتحة صغيرة وأغلقتها بعد دخوله ومشيت أمامه كي أقوده الى الساحة تحت الخشخاش حيث كراسي البامبو الجديدة ومظلة شمس.

سألته إن كان يريد قهوة ففضل الشاي وماء بارد حتى يرتاح من تعب الطريق. قال إنه كان قادما ليسلم علي حين سمع بالانفجار وبدأ التجار يغلقون الدكاكين والناس يتطايرون مثل العصافير. وجد نفسه محشورا في المدينة، فالطريق أغلقت والسيارات أوقفت ولم يجد أمامه إلا أن يكمل طريقه إلي حتى تفرج وتنفتح الطريق.

بدأت أسأله عن حاله وماذا يعمل وماذا فعلت به الدنيا منذ النكبة وضياع البلد والهجرة ثم الاحتلال والنكسة ثم أوسلو ثم غزة ثم الأوضاع الغريبة في هذا الجو؟

بدأ يتحدث عن الأوضاع بشكل تقليدي كما نفعل، يعني إحباط، يعني احتلال، يعني انحلال، يعني هزائم، يعني دمار وكوارث، ثم دخلنا في صلب الجد وأوضاعه. قال إنه جاء من دبي قبل سنتين واشترى دارا في زواتا على سفح الجبل من طبيب هاجر الى كندا. الدار كبيرة وجميلة حولها أشجار وسور وسياج خوفا من الجيش والتسلل وبركة سباحة وعدة دونمات يزرع فيها الخضار والعنب والفواكه ويقضي الأيام وهو يجرب أنواع البذار والفسائل يحضرها من كل مكان يسافر إليه.

رآني أحدق في وجهه وقرأ في عيني عبارة "من أين لك هذا؟" فأسرع يفسر كما لو كان يقدم أوراق اعتماده ويدافع عن ثروته وأملاكه وأن تلك الثروة لم تهبط عليه من السماء ولم يسرقها، بل جمعها بعرق جبينه واجتهاده. قال إنه بدأ حياته رجل مطابع. تعلم كيف يصف الحروف في جريدة الزوبعة حين هرب مع خالي أمين الى لبنان وحزب سعادة، يعني الزوبعة الشهيرة في ذاك الوقت، وهناك تعلم صف الحروف. صف الحروف تطور منذ ذاك الزمن، ومع تطوره تطور هو من صف الحروف باليد حتى الإنترتايب والمونتايب والزينكوغراف والأوفست ثم الطباعة الاليكترونية والكمبيوتر. وهو الآن لديه في الإمارات شركة ضخمة للكمبيوتر وآلات النسخ والتصوير والطباعة يستوردها من كوريا واليابان والهند وألمانيا والبرازيل. يستورد كمبيوترات وبرامج ويتابع الثورة التقنية في كل مكان في العالم.

طوال حديثه وأنا أتأمله وأفكر كم تغيرنا واختلف ربيع! أهذا ربيع حفيد أم نايف بائعة اللبن والخبيزة وابن خالي بالروح ووريث الحسيني وسعادة؟ كنت قد سمعت من خاليّ أنهما حين ذهبا للقدس بعد صانور التقيا بربيع في مقر قيادة الثورة عند الحسيني بقرية بيرزيت. كان قد التحق بالحسيني وقواته وظل معه حتى استشهاده في القسطل، وبعد القسطل ذهب مع أمين الى سعادة، وبعد سعادة هرب لكندا، وهناك انقطعت أخباره. وها هو الآن، رجل غني ومبرمج يحكي بالويندوز والإنترنت والكمبيوتر ويتشدق بفروع الشركة العملاقة في الإمارات وأولاده من زوجة كندية ماتت للأسف بسرطان الثدي وها هو الآن بين الإمارات وزواتا ويعيش بعيدا عن هذا الجو!

ذكرني شكله وحديثه برجال الأعمال في عمان، وفي كل عاصمة عربية. هؤلاء يثيرون مللي ونفوري فأهرب من جو التبجح والسطحية وأعود لجوي المتقشف والطبيعة أرسم أشجارا وحوانيت وشوارع مرصوفة بالباعة والحمالين وعرق السوس والشاورما ووجوه نساء مكبوتات منكوبات وأطفال العلكة والبسبوسة. أنا فنانة، وهو رجل أعمال متبجح. هكذا صرنا وعلى هذا نموت، فماذا بقي من هذا العمر حتى نغير؟ وهل كنا نملك أداة التغيير لنغير أو نتغير؟ أم أن الأقدار تقذفنا وتفرفطنا قصاصات ورق في مهب الريح؟

سألني عن حالي فوصفت باختصار شديد ما آلت إليه أحوالي بعد ستي. ستي ماتت وأمي اختفت فألحقني خالي بمدرسة الراهبات حيث عولج في المستوصف. الراهبات اكتشفن موهبتي فدبرن لي بعثة فنية الى روما، ومن هناك بدأت حياتي كفنانة وعشت حياتي بالطول والعرض. وها أنا أعود الى داري حتى أرمم ما آل إلي من آل قحطان.

كان يحدق فيّ وأنا أحكي وكأنه يبحث فيّ عن تلك الصبية الحساسة ذات الجمال والأناقة، بنت القحطان، ذات الحذاء اللميع وأشرطة الرأس، وكيف قال لي في يوم ما وهو يراني بصندل كوتشوك وفستان صنع من الطراريح أن فستاني القديم كان أحلى. ولا بد أنه يفكر الآن، كما أفكر أنا، أن فستاني القديم كان أحلى، وشكلي القديم كان أحلى، ووجهي القديم كان أحلى، وزمني القديم كان أحلى. هل كان يفكر في ذلك أم أتخيل؟

قلت بحسرة كما لو كنت أخاطب نفسي:

– كنا أحلى!

قال بجدية وتأمل:

– كنا أصغر.

قلت بحسرة:

– كنا أحنّ، كنا أجمل.

قال بجمود:

– كنا نحلم.

قلت بجفاء كما لو كنت أتهمه:

– أنا ما زلت.

ابتسم برأفة وسبّل عينيه:

– هذا لأنك فنانة.

سألته بفضول:

– وأنت ألا تحلم مثل كل الناس؟

هز رأسه:

– الناس لا يحلمون، فقط يعيشون، فقدنا الحلم.

– وأنت فقدته؟

قال بسرعة كما لو كان يبق حصاة في فمه كانت تزعجه:

– أنا؟ من أنا؟ أنا واحد من الناس فقد أحلامه وإيمانه. فقد التاريخ. أنا بعد أبو كمال والحسيني والشيخ قحطان وسعادة ما عدت أنا. ذهب الأبطال فتيتمنا. بتنا بيادق برقعة شطرنج ولا نعرف من يحركنا. أهم الحكام أم الاستعمار أم غباء الشعوب أم الأقدار؟ كل من آمنت بهم ذهبوا عني، ماتوا، سُحقوا، وكل الثورات سحقت بالأرجل والبساطير أمام أعين هؤلاء الناس. هؤلاء الناس من أعطيناهم كل شيء تخلوا عنا. رأونا ننسحق فداسونا، ونسوا ما كنا وفعلنا. هل يذكرون الشيخ قحطان؟ هل يذكرون أبو كمال؟ هل يذكرون الحسيني؟ هل يذكرون سعادة لبنان؟ هل يذكرون ما فعلت أنا وما فعل أمثالي من أجل الحرية والاستقلال؟ أنا يا سيدتي ما عدت أعيش إلا لذاتي. ضريبة الدم دفعتها، وخدمة العلم أديتها، وأحلام الثورة جربتها، وطوردت وسجنت وعذبت وشردت ثم وقفت على رجليّ بعنادي، وها أنا أعيش براحة تامة لأني كبرت على الأحلام.

×××××

بعد يومين على الإغلاق، وكنا محشورين في محيط الدار، حكى لي قصة التحاقه بالحسين وكيف اكتشف قصة أمي. قال إنه بعد أن ترك صانور ذهب لحيفا حتى يعمل في مصفاة البترول أو الميناء، وهناك رأى الإنجليز واليهود والعمال العرب ومدى الإذلال والاستغلال. رجع إلى صانور فأخبرته حسنا عن الحسيني والثورة. قالت الحسيني رجع إلى البلد وأرجع الثورة وأججها، صارت أقوى، صارت أنظم. ما عادت مجموعات متناثرة بلا تنسيق ولا تخطيط، صارت قوات عسكرية في جيش أسموه الجهاد المقدس، ونصحته أن يلتحق به.

ذهب إلى بيرزيت حيث أقام الحسيني رئاسة أركانه. أوقفه الجنود. كانوا جنودا بالكاكي ومعهم أسلحة وقنابل. منعوه من الدخول. حققوا معه وفتشوه ثم أمهلوه حتى يسألوا عنه ويتأكدوا من معلوماته.

وقف في الخارج ورأى عدة مباني كما لو كانت عدة وزارات، وعلى كل واحدة لافتة تشير إلى الاختصاص ونوع الميدان. مبنى للإدارة، ومبنى لشؤون الموظفين، ومبنى للمخابرات، وثالث ورابع وخامس وسادس...يعني نظام، شبه حكومة، والحرس يحيطون بالمباني ولا يدعون أحدا يدخل إلا بعد تمحيص هويته أو قيامه بعمل رسمي.

ظل واقفا تحت شجرة بانتظار التأكد من هويته ومعلوماته. وحين طال الانتظار جلس على حجر تحت الشجرة وظل يراقب وهو مراقب. كان يعرف أنه مراقب، لكن الوضع أعجبه وأثلج صدره. أحس أن هناك قيادة قوية وتنظيم حقيقي وجيش دفاع ومخابرات، أي تركيبة تشبه

ما يقوم به اليهود، مثل الوكالة اليهودية. وهذا يعني أن الثورة ما عادت جزافية وعشوائية وبلا نظام ولا انضباط. صارت مؤسسة رسمية. صارت جيشا وله قائد، وبشائر دولة وطنية.

ظل يراقب على بعد أمتار من مبنى القيادة. أخيرا سمع دربكة وطرق خطوات وسكيك سلاح وصيحة مدوية: "استعد،" فتحفز، ورأى القائد. كان بالكاكي والحطة، وأحزمة الرصاص حول صدره. لم يتبين وجهه بسبب الحطة ووقوفه يتحدث مع الحراس لكنه لاحظ أنه مربوع القامة ممتلئ الجسم. وحين التفت رأى وجها وسيما لوّحته الشمس وشارب عصري وبسمة مرحة لا تفارق شفتيه وعينين مشعتين لا تتوقفان عن الحركة. كان يحرك يديه وهو يحكي، وكل إشاراته ولفتاته تدل على رجل دينامي متحرك.

بسرعة غريبة، وجد ربيع نفسه يقفز من مكانه ويقف على بعد متر من القائد ويؤدي السلام العسكري وهو يصرخ: "جاهز!" أشهر الحراس السلاح وسحبوا الأزندة فصاح ربيع: أنا من فصيل الشيخ قحطان، أنا مجاهد. رفع القائد يده وهو يبتسم ويتأمل الشاب بدهشة وحذر وقال له: ما اسمك يا شاب؟ من أين جئت؟ لماذا جئت؟ وكيف وصلت؟ أخذ ربيع يعيد ما قاله للحراس فوضع القائد يده على كتفه وقال بلطف: تعال معي. إحك لي ما حل بكم.

ركب معه السيارة وأخذ يقص عليه ما كان وما صار وما وصلوا إليه. حكى عن أبو كمال والشيخ قحطان. حكى عن الجبال والمحاجر. حكى عن صانور وزواتا. وحكى عن والده وكيف التحق بالزيبق، وكيف انفرطت مجموعة الشيخ قحطان وأمثاله.

ربت القائد كتفه وقال يطمئنه: أنت معنا. فقال ربيع وهي يدمع: روحي فداك وفدى الثورة. قال القائد: كلنا الآن جيش واحد، لا عصابات ولا مجموعات ولا فوضى. قيادة واحدة وقائد واحد وقوات واحدة للدولة. تقسم؟ اقسم. وضع ربيع يده على صدره وحلف اليمين، فقال القائد: تبدأ تدريبك منذ الغد، لباس عسكري، نظام عسكري، انضباط وأخلاق وشهادة. شهادة الناس وضباطك. بدون أخلاق لن ننضبط، وبدون انضباط لن نتحرر. غدا تبدأ.

بدأ التدريب، تدريب على السلاح، تدريب على الانضباط، ودروس في الأخلاق والتأدب. كان الهدف تدريب الشباب على الانضباط وحسن الخلق. الناس نبذوا الثورة بسبب الفوضى والتشرذم واستغلال السلاح للابتزاز والتسلط، وسرقات واغتيالات ومؤامرات ودسائس. هذا مرفوض، قال القائد، كله مرفوض وتحاكم عليه. تشدد في الضبط والرقابة. الكبار يراقبون الصغار والصغار يراقبون الكبار، وفي اجتماعات دورية تناقش الأخطاء والهفوات وتحاسب. النفر يحاسب ويحاكم مهما كان منصبه أو علا قدره. لا مكان للمحسوبية ولا امتيازات لأحد على أحد مهما كان أصله أو فصله أو حمولته وعشيرته. كلنا واحد، كلنا ثورة، ومشروع شهادة أو دولة.

ثم كان اليوم الذي خاض فيه الاشتباكات مع القائد. وفي كل اشتباك أو إعداد كمين أو انفجار كانوا يخرجون بانتصارات مدوية زادت من شعبية الحسيني والجهاد المقدس ورجاله وأنعشت الأمل بالاستقلال. استرد الناس معنوياتهم وصاروا يحلفون برأس الحسيني ورؤوس مجاهدي الجهاد المقدس. الانجليز جن جنونهم، فرصدوا الألوف مقابل الحصول على الحسيني ورؤوس جيشه. لكن في يوم، غدر بهم مختار إحدى القرى وأعد لهم كمينا بالاتفاق مع الانجليز. دعاهم للغذاء وبلغ عنهم. تأخر الغذاء حتى صلاة العصر وبدأوا يتململون والمختار يمهلهم ويمنيهم بأكلة شهية. وحين حضر الغذاء جسه القائد فوجده باردا ففهم اللعبة وأمر رجاله بالانسحاب، لكن الطائرات وقوات الانجليز كانت قد أحاطت بهم، وكانت معركة مباغتة فاجأتهم. قتل الكثيرون وجرح الكثيرون وهرب ربيع مع الهاربين، أما القائد فقد أصيب إصابة بالغة جعلته يتدحرج ويرتطم ببلوطة. أغصان البلوطة ظللته وحجبته عن الأعين. وحين جاء قائد الحملة الانجليزي يركل الموتى بقدمه بحثا عن الحسيني وقواده، وجد ضابطا برتبه رفيعة ظنه الحسيني فهرع الى قواته يبشر بالنصر. في المساء جاء أهل القرية وجمعوا القتلى ودفنوهم، وظل الحسيني تحت البلوطة مهملا منسيا طوال الليل. وفي الصباح مر به بدوي سمع أنينه فأركبه على ناقته دون إن يعرف هويته وذهب به إلى طبيب عربي وممرضته. المرضة كانت وداد القحطان، وهذه الوداد وقفت على خدمته واعتنت به وسهرت عليه. وهكذا ابتدأت قصة وداد القحطان والحسيني، أو قصة وداد والقائد، أو قصة الحب المزعومة بين بطل نجم، وامرأة نكرة منسية لم تذق الحب ولم تعرف إلا الإخفاق فانبهرت، ثم أحبته، ثم تبعته، ثم فقدته فاختلّت وهربت للشام.

×××××

انتظرت أن يحدثني عن أمي وقصة حبها المزعومة للقائد البطل وكيف اكتشف تلك القصة وأين ومتى فاجأها وهي تقبل يده وهو نائم؟ لكنه لم يفعل. ففي كل يوم أعود إليه أجده بمزاج مختلف عن اليوم السابق. يوم أجده نشيطا مبتهجا مليئا بالأمل والتفاؤل، ويوم أجده عابسا متورم العينين من أثر القلق وعدم التمكن من النوم حتى طلوع الفجر أو حتى الضحى. يوم يقول وهو مشرق الوجه يأكل بنهم وشهية أننا سطرنا في التاريخ أروع أمثلة للتضحية والبطولة، ويوم يقول وهو عابس الوجه وبنفس مسدودة عن الأكل يدخن السيجارة من الأخرى أننا كنا أسوأ الشعوب ولا نستحق إلا هذا...ويشير بيديه حواليه كما لو كان يعني الاحتلال والحصار والكوارث. وحين زاد الحصار وتتالت أيام الإغلاق وصرنا نخاف على الأكل أن ينضب قال بتهكم أدهشني: هل تعلمين أننا في يوم ما حاصرناهم؟ حاصرنا مئة ألف يهودي في مستعمرات حول القدس. حاصرناهم حتى كادوا أن يموتوا من الجوع والعطش والخوف. حاصرناهم. في ذاك الوقت حاصرناهم. قطعنا عنهم الماء والكهرباء والإمدادات والتموين والقوافل. نحن فعلا حاصرناهم.

لم أصدقه فأخذ يصف لي كيف فجروا أنابيب الماء ولغموا محطات الكهرباء وهاجموا قوافل التموين والإمدادات ودمروها وحرقوها في باب الواد. باب الواد هو الطريق الرئيسية بين القدس وتل أبيب محاط بقرى عربية في المرتفعات. عشرات القرى مثل القسطل ودير ياسين والعيزرية والعيسوية واللطرون وأخرى، وأخرى. كانوا يترصدون للقوافل في تلك القرى وأعالي الجبال وينسفون مصفحة أو اثنتين في المقدمة فتتعطل مسيرة القافلة. حينئذ يهجمون على اليهود والانجليز من كل حدب وصوب ويفتكون بهم فيتطايرون مثل العصافير تاركين وراءهم المصفحات والقتلى والإمدادات.

أغلي له القهوة أو أفتح الراديو أو أقدم له طبقا جديدا من البيض حتى نشعر أننا نمر بيوم جديد وحدث جديد. بيض عوينات أو بيض بالجبن أو بيض بالبصل والبقدونس أو بيض بالبصل والبندورة. يتأمل البيض بالبندورة ويقول: هذا يذكرني يوم أكلناه بقرية كذا في الجبل الفلاني يوم كذا. والبيض بالبصل والبطاطا أكلناه في قرية كذا بعد معركة كذا في يوم كذا. ثم ينتقل إلى البيض عند اليهود أثناء الحصار فيقول فجأة: في حصار المستعمرات صار سعر البيضة عندهم بثلاثة قروش وفي قرانا كان البيض بسعر البلاش. ثم ينتقل إلى الرصاص وسعر الرصاص. يقول الرصاصة في ذاك الوقت كانت بسعر البيضة عند اليهود، أي بثلاثة قروش. لدينا الرصاصة بثلاثة قروش ولديهم البيضة بثلاثة قروش، والقرش كان في ذاك الوقت يعني دينار في هذا اليوم، يعني البيضة بثلاثة دنانير، والرصاصة أيضا بثلاثة دنانير. ويحدق في وجهي ويسألني مثل المجنون: أيهما كان الأهم بيضة واحدة بثلاثة دنانير أم رصاصة بثلاثة دنانير؟ ولا أجيب لأني أحتار، فعلا أحتار. فلو كان لدينا رصاص بدل البيض في ذاك الوقت هل كنا نعيش في هذا الحصار؟ وهل هذا الحصار يختلف كثيرا عن ذاك الحصار؟ وهل سنظل في هذا الحصار حتى نقوى عليهم ونحاصرهم؟ وان حاصرناهم ما يدرينا إن كانوا سيقووا علينا ثانية ونعود من جديد إلى هذا الحصار؟ يعني الحصار مثل اليويو، لعبة أطفال، لكنها لعبة مميتة، وهل نظل مثل الأطفال؟

يعود ثانية للتخريف فيقول ساهما: أذاقونا الويل أولاد الحرام، ونحن أيضا جنناهم. بلا مال ولا سلاح جنناهم،

فكيف لو كان لدينا سلاح مثل البيض؟ ما نفع البيض من غير سلاح؟ ما نفع السلاح بلا سلحلك؟ ما نفع الرشاش بلا سلحلك؟ السلحلك يعني ذخيرة وأحزمة رصاص. كان القائد دوما بسلاح وسلحلك. كان لديه رشاش برن سريع الطلقات، لكن أحيانا بلا طلقات. ورغم ذلك كان القائد أشطر واحد بصنع الألغام. في كل بيت انتقلنا إليه كان يقيم مختبر كيمياء يجري فيه تجارب مهولة على المتفجرات وصنع الألغام. أخذ دورات في ألمانيا قبل رجوعه وعلّمنا صنع الألغام.

×××××

أعاد علي قصة المختبرات وكيف نسفوا الوكالة اليهودية وشارع بن يهوذا بمتفجرات صنعها القائد بمختبره، وكيف جاء سماسرة السلاح ليشتروا منه المعادلة الكيميائية للتفجيرات. المتفجرات التي صنعها القائد في مختبره كانت أقوى من العادة بعشر مرات. أرادوا معرفة ما فعل بها حتى تصبح أقوى من العادة بعشر مرات. لكن القائد سخر منهم وقال هازئا: أنا لا أبيع أسراري! هذه معادلتي وأسراري.

ونظر إلي وقال مستفزا:

– يعني مثلك.

– مثلي أنا؟

– أنت لا تفشين أسرارك وهو لم يفش أسراره.

تذكرت ما قلته عن أسراري فابتسمت بكبرياء وتواضع. كبرياء لأنه يشبهني بالقائد، وتواضع، لأني أعرف ما أنا وما هو وزني وما تزنه أسراري في هذا الوقت. أسرار القائد كانت متفجرات في مختبرات ومعارك كانت تهز الدنيا، أقصد هزت، وأنا كلمات مثل كلمات ماجدة الرومي ونزار قباني ومحمود درويش، مجرد كلمات. وهذه الكلمات في النهاية، مجرد كلمات. أي أن الغناء والموسيقى وحتى الألوان لا تحمل لنا إلا كلمات. فما قيمة الكلمات إذا قيست بالتفجيرات؟

قال باقتناع بدا لحظتها كما لو كان لا يتزحزح:

– لو لم تكن الكلمات كالتفجيرات، لماذا إذن كتبنا البيانات والمنشورات؟ لماذا نشرنا الجريدة وخالك أمين كتب المقالات؟

قلت بحسرة:

– وماذا بقي من المقالات والمنشورات؟

– بقي هذا!

وهز أوراق خالي أمين بيده اليمنى:

– هذا تاريخ.

– تاريخ من؟

– تاريخنا نحن.

سألت بأسى:

– وهل نحن نحن؟

حدق في وجهي يستطلعني فقلت بحسرة:

– هل أنت ربيع هو ذاك الربيع؟ وهل أنا نضال هي تلك النضال؟ وهل أبو كمال هو هذا الكمال؟ وهل ذاك القائد هذا القائد؟ وحتى أمي وداد، هل كانت وداد هي حقا وداد أم تتخيل؟ تقول إنها أحبت القائد حبا أفقدها العقل، فكيف عرفت، أو أين قرأت؟ أنا قرأت ولم أجد ما أشرت إليه، فهل رأيت؟ ماذا رأيت؟ قلت إنك رأيتها تقبل يديه وهو نائم، وقلت إنها قبلت يديه وهو مغمى عليه، فهل أنت واثق مما رأيت؟ وحتى لو قبلت يديه وهو نائم أو مغمى عليه، فهل هذا دليل على أنها أحبته وعشقته وماتت عليه؟ ألا يكون تقبيلها ليديه اعترافا ببطولته وتضحيته؟ ألا يكون احتفاء برجولته ونخوته؟ ألا يكون امتنانا لما قدمت يداه من إبداعات وتفجيرات؟ تقول إنه كان مبدعا في اختراعاته وأنه كان شجاعا ومتهورا في اندفاعاته. أعطى كل شيء حتى روحه، نسي زوجته وأولاده ونسي أمجاد عائلته وعاش في الكهوف والمحاجر، ألا يستحق تقبيل اليدين؟ لو كنت مكانها لقبلت يديه.

×××××

حملت الأوراق أبحث فيها عن أمي في شهادة قريب موثوق به عاش الأجواء وعايشها، عايش أمي، عرف عنها كما كرر ربيع عدة مرات، وعرف عن القائد والقسطل وأسرار الشام. من قتل البطل، أهم اليهود أم هي الشام وزعماء القدس؟ لكن للحق، لم يكن يعنيني في ذاك المساء إلا أمي. أردت أن أبحث عن أمي، عن الوجه الآخر لأمي، هل كانت عاشقة ولهانه؟ هل أحبته؟ هل أسعفته؟ وهل تبعته لربوع الشام والقسطل؟

أخذت أنقب، أفتح أوراقا وأهملها، أتصفحها، أقرأ العناوين وبعض السطور، وحين لا أجد ذكرا لأمي أهملها. عناوين كثيرة ومواضيع غريبة ونقاشات محمومة ووصف لمعارك لا تحصى. معركة عرتوف، معركة بني نعيم، حي القطمون، الشيخ جراح، النبي صموئيل، الدهيشة، شارع بن يهوذا، المنتفيوري، شارع هاسوليل، نسف الوكالة اليهودية، ثم باب الواد وعشرات القرى فوق باب الواد. أخيرا وصلت إلى دمشق وزعماء القدس، معظمهم هربوا، لجأوا للشام، والزعماء العرب وجامعتهم قرروا الدخول لتحرير القدس وهم في الشام وشكلوا ما يسمى بجيش الإنقاذ.

أقلب الصفحات وأقرأ العناوين وأتلهف على وصف حقيقي موثوق به لقصة الحب المزعومة، قصة أمي، والوجه الآخر للوجهين. وجه أمي ووجه القائد، والسر الحقيقي للقسطل ومن قتل البطل، زعماء القدس، زعماء العرب أم القسطل؟

خالي يقول إن القائد اكتشف أبعاد خطة نخشون. ما هي نخشون؟ من هو نخشون؟ هو أول يهودي دخل فلسطين. متى دخلها، كيف وأين؟ فوت نوت، فوت نوت، لا تعنيني. لكن الخطة واسمها نخشون، كما اكتشف القائد من أعوانه في السفارتين الأميركية والبريطانية، تنص على قتل القائد وكل القواد لأن العرب لا يستطيعون العمل بلا قائد. هذا ما قالوا، أو ما قال. قالوا القائد بالنسبة للعرب هو البديل عن الوالد، يعني البديل عن الراعي لأنهم بلا قيادة مثل الغنم بلا راعي. هذا ما جاء بخطة نخشون. وأيضا جاء أن الهاغناه وأرغون وشتيرن مع البالماخ، يعني المنظمات اليهودية، بدعم من الإنجليز، سيعملون على إفراغ القرى والمدن بترويع الناس. يقومون بمذابح جماعية فيخاف الناس ويهربون من قراهم ومدنهم فيقطنها اليهود. هذا ما جاء بخطة نخشون.

أقلب الصفحات حتى أصل لموقع أمي. أين أمي؟ أين القائد؟ كيف أحبته؟

يقول خالي إن القائد اكتشف خطة نخشون، والاجتماع السري بين بن غوريون وموشي دايان وجولدا مائير ورجل كبير من الاستخبارات البريطانية، وعلى إثر الاجتماع فتح الانجليز أبواب معسكراتهم في صرفند وراس العين ووادي الصرار. أعطوا اليهود الدبابات والمصفحات والمدافع الثقيلة والطيارات وفتحوا لهم ميناء تل أبيب على وسعة ببواخر تأتي من روديسيا وروسيا وانجلترا وفرنسا وحدود الهند. اجتمع برجاله والقواد ومن ضمنهم خالي الكبير وخالي أمين مستشار الإعلام والصحافة، وقال لهم إن المعركة لن تصمد ولن يستمر الحصار إذا لم يحصلوا على أسلحة ثقيلة وذخيرة. الأسلحة الخفيفة وشغل العصابات ما عاد يفيد، الانجليز ينفذون وعد بلفور، والقناصل العرب وعدوا بعدم التدخل في المعركة إلا بعد انتهاء الانتداب في 15 آيار. ليس هذا فقط، ووعدوا الانجليز بعدم تسليح الفلسطينيين وتدريبهم، ويتوسطون الآن لدى المفتي، ربما بخبث وبلاهة، حتى نفك الحصار عن المستعمرات اليهودية، وهي الورقة الوحيدة في أيدينا. قلنا لهم، نفك الحصار شريطة أن يلقوا بأسلحتهم ويتوقفوا عن القتال ويعيشوا معنا كبقية المسلمين والمسيحيين سواء بسواء. رفضوا ذلك، قالوا إنهم شعب مختار فواصلنا الحصار. قالوا فلسطين كانت لهم منذ التاريخ فواصلنا الحصار. قالوا داود والهيكل ولا نبي إلا موسى فواصلنا الحصار. ناس المستعمرات ماتوا من الجوع، أكلوا الأعشاب، أكلوا السحالي والجرذان، شربوا

ماء الآبار العتيقة ومضغوا الخرفيش، ورفضوا التسليم فواصلنا الحصار. وأنا أقول، قال القائد، ليتوسطوا أرواح الأنبياء والمرسلين فلن نرضخ ولن نفك الحصار. تسليم السلاح هو المنفذ، وهم لا يريدون هذا المنفذ، يريدون القدس، وحيفا ويافا وكل فلسطين. دولة يهودية بدون مسلمين ولا مسيحيين، هذا ما يريدون، دولة عنصرية فقط لليهود. ونحن نقول لا دولة عنصرية ولو ماتوا أو متنا نحن. موقفنا الآن أقوى منهم. نحن نمسكهم من مقتل. نحاصر مئة ألف يهودي في مستعمرات القدس. هذه الورقة إذا سقطت سقطنا معها. إن خسرنا باب الواد وقرى المرتفعات والقسطل سقطت القدس، وإن سقطت القدس سقطت فلسطين. لا بد لنا من سلاح. علينا أن نبيع ملابسنا في سبيل السلاح. كل مواطن، شاب أو عجوز، رجل وامرأة، حتى العميان، حتى المقعدين، حتى المجانين والشحاذين والمرضى والعاملين في المستشفيات والجمعيات وكل فلسطيني على وجه الأرض عليه أن يساهم ويدلي بدلوه حتى لا نضعف ونفك الحصار.

قلبت الأوراق، قلبت، قلبت. لم يقل أحبت القائد، لم يقل عشقته وماتت عليه، لم يقل بكت من ذوب العشق، لم يقل مغامرات وجنون واختلال العقل. لكن القصة شغلتني، أثارتني، قصة القائد والقسطل. من قتل البطل، زعماء القدس أم زعماء العرب أم القسطل؟

قال خالي: اجتمعنا بالنساء وقلنا لهن إن الموقف بات خطيرا. نحن بحاجة للعون الكثيف، للعون السريع. عليهن الاتصال بنساء العرب، جمعيات العرب، والحصول على أكثر ما يمكن وفي أسرع وقت. النساء تجاوبن لأبعد حد، لكن المصيبة والكارثة كانت الناس. الناس اجتمعوا أمام الجمعية وسدوا الشارع وهم يصرخون أين القائد؟ أين الجهاد المقدس والإنقاذ؟ أين الجهاد؟ أين الإنقاذ؟ فانتفض القائد وقال لنا: نذهب للشام، حالا، فورا، نذهب للشام. نحن سنموت من غير سلاح. الأخوة العرب لديهم سلاح، نأخذ منهم.

تركنا القدس كقِدر يغلي. ركبنا السيارة وربيع يسوق مثل المجنون. وصلنا الشام عند المغرب، يوم 3 نيسان، أي قبل النكبة بأيام فقط. لكن ما حدث بتلك الأيام، كان عاصفة مجنونة.

الجزء الثالث

وصلنا الشام عند المغرب. ذهبنا إلى الفندق وحجزنا غرفتين، واحدة لنا وواحدة منفردة للقائد، ثم خرجنا نبحث عن مطعم أو مقهى نأكل فيه ما يسد الرمق لأننا لم نذق الأكل منذ الصباح وكنا نلهث ونشعر بالبرد. دخلنا أول مقهى وجدناه في طريقنا قرب الفندق وكان يعج بالزبائن ودخان الأراجيل والسجائر وأصوات النرد وطرقعة الحجارة تدوي هنا وهناك ومجموعات من الرجال يلعبون الورق والطاولة ويشربون الشاي أو القهوة وآخرون يأكلون الشطائر والفطائر أو حمص وفول. انتحينا في زاوية قرب الزجاج حتى نتأمل المارة وأضواء الشام وطلبنا صحني حمص وفول وكوبي شاي وأخذنا نراقب ما حولنا ونحن ما زلنا مبهورين بجو الوئام والألفة ونقارن بين هذا الجو وذاك الجو. هنا ناس يأكلون ويشربون ويلعبون الورق والنرد ويتنزهون ويعيشون بدعة وهدوء واسترخاء وهناك جو ينهشه الخوف والتوتر والناس قلقون على مصائرهم ولا يعرف الواحد منهم إن كان نهاره سيمر على خير أم ان انفجارا سيقع قريبا منه فيذهب ضحيته هو أو أحد أفراد عائلته. هنا استقلال وحرية وهناك انتداب واستيطان. هنا حكومة وطنية وهناك حكومة انتدابية معظمها يهود، يهود انجليز وانجليز يهود ويهود يهود وحكم انتداب يحابي اليهود، عينك عينك، يأخذ منا ويعطيه لهم ويقول حياد، يعطيه لبيض جاءوا من الغرب فاختلط الحابل بالنابل واختلط الأبيض بالأسمر واختلطت لغات روسية على عبرية على ألمانية وفرنسية وبولندية، وبتنا نعوم في بحر النفي والغربة ونحن ما زلنا في أرض الوطن. لكنا ما زلنا نمسك بالزمام ونحاصرهم. كنا الأقوى، حتى بالضعف كنا الأقوى، وحصار المستعمرات هو المفصل والقول الفصل.

سمعنا النادل نتحدث بلهجة عربية فسألنا من أين نحن فقلنا من القدس. ابتهج وقال يا حيا الله، أصحاب الشجاعة والهمة، أخباركم والله ترفع الرأس وترد الروح، جماعتكم هناك. وأشار بيده نحو مجموعة كهول يلعبون الورق والنرد، فرأيت وجوها أعرفها وأتحاشاها وأكن لها نفورا طبيعيا لا أعرف إن كان سببه اختلاف الجيل أم المبدأ أم الاتجاه والخلفية. هم زعماء السياسة والقادة، قادة الأحزاب، وأعضاء الهيئة العربية من كان بيدهم الأمر والنهي والمؤتمرات والعرائض حتى هربوا، تركوا مواقعهم في القدس ولجأوا للشام بعد أن قسموا البلد عدة جبهات وجعلوا منها رقعة شطرنج. وها هم الآن في مقهى الشام يلعبون الورق والنرد ويشربون الشاي ويناقشون قضايا الوطن ويتحسرون ويتأففون ولا يفعلون، بل يفعلون، إذ كل واحد يمسك بخيوط يشد بها من خلال زلم وأجندات ومصالح.

عاد النادل وابتسامة واسعة على وجهه وقال لنا وكأنه يحمل لنا بشرى سارة إن البشوات يدعوننا لشرب الشاي والتعرف علينا والاطمئنان على ما يجري وأخبار القدس. ربيع تجهم وانفعل وقال إنه لن يجلس مع هؤلاء لأنه لا يعترف بزعامتهم. لكني قلت إن وضعنا الحالي لا يوفر لنا مثل هذا الترف إذ ان مهمتنا هنا في الشام أن نحصل على الدعم من أي كان، من إخوتنا العرب أو الأتراك، من الألمان والطليان وحتى الشيطان، فما بالك بأهل البلد وزعماء القدس وهم أولى الناس بما نطلب! وهكذا تحاملنا على نفسينا وقبلنا الدعوة لشرب الشاي وزرناهم.

كانوا 10 من أصل 12 – أعضاء الهيئة العربية، أي شبه حكومة وطنية تقاوم الانتداب وسياساته، لكن عن بعد، من مقهى الشام، وكلهم، كلهم، ممثلو عائلات ومصالح وأحزاب لا يزيد عدد أعضائها عن أفراد العائلة وأزواج البنات والأخوات والأقارب. لكنهم في عرف الانتداب وحتى اليهود، هم الممثلون والزعماء والقادة ومن شكلوا المقاومة الناعمة لواجهة البلد حتى انفجرت ففروا منها حتى لا يصابوا ببعض الرذاذ ولحقوا بسماحة المفتي. أنا وربيع كنا نتقوّل عن الآخرين أمام القائد، أي قائدنا، إلا المفتي، لأن سماحة المفتي هو عم قائدنا غير اللزم، يعني عم عمه أو ابن عم أمه أو ابن خال عمة أمه. وهو الوحيد ممن فروا كان يناصر قائدنا عبد القادر ويشد معه أو يشد به، لا لأن قائدنا يمثل اتجاها اجتماعيا أو دينيا يتبناه سماحته أو يرضى عنه، بل لأنه فخذ أصيل من عائلته، وقد بات الآن نجما عربيا يرفع الرأس وصورته تظهر في صحف الشام ومصر ولبنان والسعودية، مع ان السعودية بلا قرّاء.

كانوا يتحلقون حول طاولتين متلاصقتين. عدد منهم يلعبون الورق واثنان يلعبان النرد واثنان فقط يناقشان الوضع السياسي وهما يرقبان الورق والنرد ببعض البرود، وحين يشتد الوطيس يسكتان بضع لحظات حتى يستقر الوضع ويتبينان النتائج ثم يعودان الى النقاش بنفس الحماس أو أبرد لأن الورق والنرد جاءا بنتائج طيبة أو عكسية. لكن الجميع كانوا يشربون القهوة والشاي، وواحد فقط يشرب قينر لأن نيسان ما زال باردا والطقس في الشام أبرد وأجفّ من جو القدس، لكن ألطف.

الاثنان اللذان يناقشان السياسة تزحزحا عن مقعديهما ورفع الواحد منهما مؤخرته بضع سنتمترات عن كرسيه وهما يمدان يديهما ويصافحانا. كانا يعتبران وقفتيهما أو ربع الوقفة دليل على الاحترام أو الابتهاج أو التكريم لأبناء البلد من حملوا معهم أخباره الطازجة ورائحته. والحقيقة أني ما كنت أتوقع أكثر من ذاك فهم كبار السن ونحن شباب، وهم زعماء شاركوا في المفاوضات والمؤتمرات ونحن نكرة، وهم منفيون بإرادتهم ونحن ما زلنا على أرض الوطن بلا هالات النفي

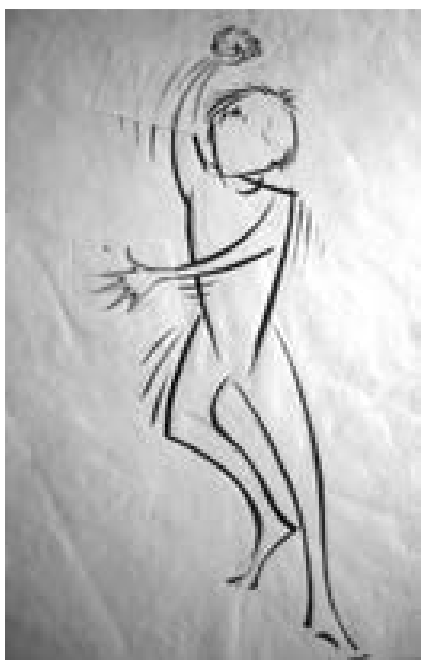

واللجوء وسخاء العرب وموائدهم. كما أننا، وهذا الأهم، نلبس الكاكي ونعتمر الحطة وهم ببدلهم الأنيقة والطرابيش ومسابحهم.

سألانا من أين فقلنا القدس. وحين قلنا "القدس" رفع اللاعبون أعينهم وتمعنوا بنا لحظة واحدة لا أكثر وأحدهم هز رأسه وآخر ابتسم بسمة خفيفة وثالث غمزني تعبيرا عن رضاه وتكريمه، ثم عادوا للعب بنفس أقوى لأن اسم القدس يحمسهم، وربما ليثبتوا لنا أنهم مهرة ولا أحد بالورق والنرد يغلبهم.

سألانا بفضول أقرب ما يكون إلى التحقيق عما نفعله هنا في الشام؟ صمت ربيع ولزم الصمت إعلانا عن نفوره أو حرده، لكني أنا بحكم موقعي الإعلامي والصحفي فقد طوّلت بالي وأخذت أشرح وأفسر. حكيت لهم عن حصار المستعمرات – الورقة الوحيدة بأيدينا. حكيت لهم عن خطة نخشون واغتيال القادة وإفراغ البلد بارتكاب مذابح جماعية. وحكيت لهم عن سلاح اليهود وما أخذوه من معسكرات الانجليز وحاجتنا الماسة لسلاح حديث ومدافع حتى نستطيع أن نستمر بمحاصرتهم ونقاوم. بعد كل ذاك الشرح والإطناب قال أحدهم بلهجة عتاب وتساؤل: الله يصلح عبد القادر! لماذا نقسم البلد الى جبهات؟ جيش الإنقاذ يمثلنا وجيش الإنقاذ سينقذنا وجيش الإنقاذ هو الأجدر.

لم أشأ أن أذكرهم بأن البادئ بتقسيم البلد إلى جبهات هو حضرتهم لأني في مهمة رسمية إعلامية شبه دبلوماسية وعلي أن أعمل بمنتهى الصبر والجدية على كسب

الحلفاء مهما كانوا، من أي بلد أو جنسية، فما بالك بزعماء القدس، أعضاء الهيئة العربية! فقلت لهم إننا أبناء البلد ونحن أدرى الناس بشعاب البلد وشعاب القدس، كما ان القدس هي المربط، وحصار القدس هو المفصل، وقائدنا البطل لم يدخل معركة وخرج منها إلا مكللا بالنصر بدليل أن الصحافة العربية تتابع معاركه وأخباره وتضع صورته في الصفحة الأولى مع كل خبر.

قال أحدهم متناغشا:

– لأن شكله يعجبهم.

وقال آخر مثنيّا:

– وشوارب دوجلاس أميركية.

وقال ثالث:

– تفصيل الجامعة الأميركية.

شدني ربيع من كتفي وأنا مشدوه متجمد لا أقوى على التنفس والحركة. وحين رآني لا أتحرك، رفس الكرسي فارتطم بالطاولة واندلق الشاي وتمازجت حجارة اللعب والأوراق واختلطت فهب البعض وقوفا خوفا على بدلاتهم الأنيقة من سيل الشاي ورذاذه وصاح واحد: ما به هذا؟ وآخر نهر: أما وقاحة! ونظروا جميعا في وجهي تعبيرا عن الغضب والتبرم فوقفت بأدب وقلت معتذرا بلباقة:

– ما تؤاخذونا، هذا فدائي دمه حامي، وراجع للقدس حتى يقاتل.

×××××

في الصباح، وكان عدد من الصحفيين قد استجابوا لدعوتنا، وقف قائدنا بلباسه العسكري والحطة الوطنية حول عنقه وقال بثقة وتفاؤل:

– النصر لنا. بإذن الله النصر لنا. قوات الجهاد المقدس تسيطر سيطرة تامة على منطقة القدس بأكملها، كما أنها تشرف على خطوط المواصلات اليهودية في أريحا وبيت لحم. مصير المئة ألف يهودي ليس بأحسن من مصير الألوف من اليهود في تل أبيب لأن القتال وحدة لا تتجزأ.[1]

علق ربيع في أذني وكأنه يجيب على تساؤل كان يقلقه منذ ليلة أمس: هذا هو السبب، القتال وحدة لا تتجزأ، يعني الثورة لا تتجزأ، وهذا ما يخيف حضرة البشوات، أليس كذلك؟

نهرته حتى يصمت فأسمع ما يقول قائدنا.

قال القائد:

– أنا كقائد عسكري يتولى الدفاع عن سلامة العرب في القدس لا يهمني ما يجري في لندن من نقاشات ومفاوضات. ما دام مشروع التقسيم قائما فإن القتال سيستمر، ولن نسمح بإنشاء دولة عنصرية تستثنيا كمسلمين ومسيحيين. ستكون دولتنا مفتوحة لكل الأديان والمذاهب والمعتقدات. ستكون دولتنا عصرية.

نخزني ربيع وقال بصوت متهدج:

– هذا هو السبب، ستكون دولتنا عصرية، هم ضد التحديث والحداثة، أليس كذلك؟

قلت له ثاني مرة: أسكت، اسمع، دعنا نسمع. لكن القائد كان قد أنهى اللقاء وقال بسرعة:

– اعذروني يا أصدقاء، أنا لم أجمعكم إلا لأقول إننا بحاجة للدعم الفعلي لا بالكلام. ساعة الحسم قد اقتربت، وإن ضاعت القدس ضاعت فلسطين، وإن ضاعت فلسطين ضاع العرب، وإني على هذا أشهدكم. اللهم اشهد، إني بلغت.

تلفت حولي ورأيت الصحفيين إما محملقين أو مطأطئين يكتبون أو لا يكتبون. كان القائد قد استثار حميتهم وأقلقهم. هم صحفيون معظمهم شباب مثقف وذوي اتجاهات قومية، بعضهم يعرفون وبعضهم لا يعرفون. من يعرفون كانوا يتأملون القائد الشاب بملابسه العسكرية ويستوعبون كلماته. هم يعرفون ماذا يقصد، ويعرفون أيضا ما في الجو الفلسطيني والعربي من تشققات وانقسامات وتخلف، وينظرون إلى القائد الشاب بقلق وأسى خوفا عليه من الواقع وانتكاساته. ومن لا يعرفون وتغلبهم العاطفة والتفاؤل يتقدمون منه يصافحونه ويقبلونه ويقولون له: أنت الأمل، أنتم الثورة والتحرير والتحرر. وهم يقصدون أن الثورة – كما قال لهم أو ما فهموه – وحدة لا تتجزأ تبدأ بالأرض وتتعدى السطح الى الداخل، أي لب الوطن وبنيته وتقاليده، يعني العائلة والعشائر، يعني الانفتاح الديني والتحرر، يعني المعاصرة والتحديث. وهو ما اتضح لي لاحقا أنه السبب في هزيمة القائد وهزيمتنا، وهذا ما سأصفه لاحقا حتى تكون التجربة وثيقة تاريخية لما حل بنا في لقاء الشام، وما سيحل بنا مستقبلا في الأردن ولبنان وسوريا، وما أفرزته السعودية!

×××××

قبل الذهاب إلى الاجتماع بالقادة العرب وممثلي الجامعة العربية حاولت أن أنوه بما دار بيننا وبين الزعماء في مقهى الشام وما قالوه عن جيش الإنقاذ والتنكر لنا. قلت له بلهجة لطيفة – قدر المستطاع – أنهم كما يبدو لا يعترفون بنا ويستخفون بحصار المستعمرات ولا يستوعبون أبعاد خطة نخشون. قلت له إني فسرت لهم كل هذا وذاك لكني لم أجد منهم أذنا صاغية ولا التشجيع والتفاعل. وحين رأيته غير عابئ بما أقول قلت له إنهم أهانونا أنا وربيع واستخفوا بنا – ولم أقل له إنهم استخفوا به هو شخصيا وسخروا منه، خجلت أن أقول، خجلت وخفت. وقلت له كيف قالوا جيش الإنقاذ يمثلهم، وهذا يعني أنهم لن يدعمونا أمام العرب، بل ربما يشجعونهم على إهمالنا وعدم دعمنا وبذلك يوطدون الانقسام والتشرذم.

كنت مهتاجا وحزينا وأكاد أشرق بدموعي لكني أقسو على نفسي حتى لا أنهار أمام عينيه فيتهمني – كعادته – بالرقة والنعومة والرومانسية. تجلدت كثيرا حتى أهيئه لما أتوقع أنه آت حتى لا يفقد أعصابه لأني أعرف أنه عصبي ونيراني وبكبرياء لا تعرف التمويه ولا التنازل. قلت له إن بعض المقالات والتقارير الصحفية والصور عن المعارك والبطولات قد تقنعهم– مع إني أعرف أنهم سمعوا وقرأوا، وربما لم يقرأوا، وهذا ما أعتقد أنه حاصل. حينذاك التفت إلي وقال ساخرا: يعني نتباهى بما نفعل؟ يعني نتباهى بالواجب؟ لم أجبه لكني بقيت أتأمل جانب وجهه الجميل وأتساءل: لماذا لا يرون ما تحت هذا الجمال من قدرة؟ لماذا لا يقدرون كفاءته واندفاعه؟ كيف لا يفخرون أنه منهم؟ لكن المثل المحبط ذكرني ألا نبي في قومه فصمت وكمدت ما أخفيته.

سألته عما قال له المفتي وهل طمأنه وفسر له أبعاد الجو؟ هذه المرة التفت وقال مندهشا: ما بك يا أمين؟ أتظنني لا أعرفهم؟ أنا ابن البلد وأعرفهم. وأضاف بعد دقيقة صمت: أصمت، ركز، دعنا

نحتاط لنفحمهم.

سألته بحذر: كيف نحتاط لنفحمهم؟ قال باسما: الآن ترى، وحتى ترى، إهدأ واصمت.

هدأت وصمت بضع لحظات وحاولت الابتعاد عن وجهه، لكني عدت أتأمله وهو يسوق بسرعة وانتباه ويخرج بنا من وسط المدينة الى ضاحية وهو غارق في التفكير ويدمدم. التقطت إيقاع الدمدمة وتسربت إلي بعض الكلمات فعرفت وتوقعت أنه يشعر. كنت أعرف أنه مغرم بالشعر والغناء والموسيقى، لكني لم أتوقع أنه في هذا اليوم، في هذا الوضع، لديه النفس أو المزاج حتى يشعر. كان يتغنى بأشعار إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وأبو قاسم الشابي، وأحيانا يتغنى بأشعاره. ومرة أو اثنتين أقرأني ما كتبه في الغربة حين كان بعيدا في العراق أو إيران أو تركيا. أقرأني قصائده وقال لي هو يضحك: حتى تعرف أن القائد أيضا شاعر. قلت له: يعني تنافسني في الصنعة؟ قال بجدية وتأمل: وحتى تنافسني بالقتال والمعارك. قلت أذكّره: أنا رجل قلم! قال باقتضاب وهو يبتعد: لهذا اخترتك. وكان يقصد، أو ما فهمت أنه يقصد، أن الشاعر هو من يشعر، يعني يحس، يعني يعطي، وأن القيادة لن تكون إلا لشاعر. ومع أني متشكك بأبعاد ما يقصد، أو ما فهمت أنه يقصد، إلا ان قوله أطربني، عزز إيماني وشجعني، جعلني أحس كم يثق بي، وأيضا كشف لي كم وجها له، وأن تحت المقاتل هناك شاعر.

أوقف السيارة أمام مبنى مهجور بصف دكاكين مغلقة بأبواب حديد. كان هناك بعض الحراس يأكلون البرتقال تحت شجرة وكان ربيع بينهم يأكل معهم. قفز ربيع حين رآنا واقترب منا وفي يده نصف برتقالة مقشرة قدمها للقائد فأخذها بدون تعليق وقسمها بيني وبينه. وفيما هو يمضغ فهمت القصة. هو أرسل ربيع كيف يكشف مخازن الأسلحة في المزة حتى يعرف ما لدى إخوتنا العرب من سلاح، وحتى يعرف ماذا يطلب.

قال ربيع إن المخازن مليئة بأسلحة من كل نوع وجنسية، فيها الخفيفة والثقيلة ومدافع وقنابل وذخائر. وأخذ يصف لنا وهو يهدر بالفرح والانفعال أن هذه الأسلحة تكفي جيش الإنقاذ وتكفينا وربما تزيد عن حاجتنا أو حاجتهم. وحتى يثبت لنا ما يقول نادى أحدهم فجاء الحارس وهو ما زال ممسكا ببرتقالة كاملة مقشورة. قدمها لنا وهو يسلم ويرحب بحرارة ويقول للقائد إنه يتشرف برؤيته وأنه كان يحلم بلقائه لأنه فخر الأمة ولأنه قرأ وسمع عن بطولاته. وهرع نحو أحد الأبواب وفتحها وقادنا وسط دغل من الأسلحة الحديثة، جديدة تلمع، معظمها ما زالت بورقتها أو في الخشب أو الكرتون وبفخر واعتزاز قال إن الشحنات القادمة ما زالت في الطريق، وان السلاح سيتضاعف وسيضطرون لاستئجار مخازن جديدة لتخزينة ما لم .. – ونظر إلينا باسما – ما لم نأخذ حصتنا منه وننقذهم من الازدحام والاستئجار ونريّحهم.

كل ذلك والقائد يتفقد الأسلحة والذخائر وهو يهز رأسه ويمضغ البرتقالة ويفكر، ثم يبتسم للحارس المتحمس ويربت كتفه ويقول له إن البرتقالة ممتازة، لذيذة جدا، ومن أي نوع ومن أية جهة، وهل هي من الشام أم الساحل؟ وانه ما كان يظن أن البرتقال السوري ينافس البرتقال اليافاوي بجودته وحلاوة طعمه. واستمر الحديث عن البرتقال والمندلينا والليمون طوال معاينتنا للأسلحة والذخائر. ولو ان أحدا مغمض العينين أو أعمى سمع ما نقول لظن أننا نعاين مخزنا للبرتقال بأنواعه. وحين اقترب بقية الحراس منا وسلموا على القائد بحرارة وإجلال يكاد يبلغ حد التقديس استدار إلي وقال لي: أترى ما هو شعبنا يا متشائم؟ قلت مجاريا: طبعا، طبعا، وأخذت أبارك وأجامل حتى ركبنا السيارة وأنا أقول طبعا، طبعا، وفي جعبتي كلام وأفكار ودوائر، لكني صمت وهو صامت، وربيع يقود السيارة، والقائد يسجل في مفكرته، ويحسب ويدمدم ويدندن.

×××××

دخلنا قاعة الإفطار فوجدناه قبلنا هناك، على نفس الطاولة والمقعد، يأكل منقوشة بالزعتر ويشرب الشاي بالميرمية. لكزني ربيع وقال هامسا:

– هذا مثلنا يحب الزيت والزعتر والميرمية!

رآنا نبتسم فصاح من مكانه بصوته الجهوري الضاحك:

– تستغيبون من؟

اقتربنا منه وقلت له ما قال ربيع فابتسم وسأل محققا وهو يحدق في وجه الشاب:

قال القائد – أظل أقول عنه القائد لأني اعتدت على ذلك لكنه ينهرنا ويقول : أنا أبو موسى، أنا مثل الناس، أنا أبو موسى.

قال أبو موسى:

– اسمع يا شاب، وانت يا أمين، أنا لولا زوجتي لكنت معدما وأفقر منكم. ولولا ضيق الوقت لحكيت لكم، لكن الآن علينا التركيز. علينا أن نركز لنفحمهم. عليهم أن يفهموا أن حصار المستعمرات هو المدخل. لا جيش الإنقاذ ولا الجهاد المقدس ولا أي جيش يغلبهم ما لم نمسكهم من مقتل، وهذا المقتل.

قلت بقلق:

– أنا حاولت يا أبو موسى أن أشرح لزعماء القدس هذه النقطة وفشلت تماما مع الزعماء ولا أظن أن القادة العرب أفضل منهم.

قال بجدية:

– لكن القادة عسكريين، معظمهم، والعسكريين يفهمون لغة التقارير والأرقام والخرائط، وهذه التقارير والخرائط ستفحمهم.

قال ربيع متهكما:

– إن فهموها.

حدق في وجهينا وبدا أنه يستوعب ما نقول ويتفق معنا في الرأي لكنه يقاوم ذلك حتى لا ييأس ويظل مندفعا بدون تردد. وقال بعد فترة صمت وهو يفكر:

– كلوا، كلوا، يجب أن نكون أقوياء ولدينا الطاقة والحشاشة فهذا اليوم هو الحاسم.

ورأيناه يمشي بسرعة ونشاط، بدون حطة، وشعرة الكثيف منبوشا أو واقفا كما لو كان لم يمشطه أو تركه مبلولا بعد الحمام وجف من تلقاء نفسه بدون بريل كريم، كما أصبح مألوفا لدى كل الرجال، معظمنا، لكنه هو، مسكين هو! وأحسست بإشفاق فجائي لا أدري سببه. أهو خوفي عليه من الخذلان والنكسة؟ أم لأني تذكرت ما قاله حول فقرِه وقد أنفق ما يملك على الثوار والمختبرات؟ أم لأني تذكرت ما قاله زعماء القدس في المقهى خلف ظهره؟ أم ما أتوقع أن يقولوه اليوم في وجهه، وهذا اليوم هو الحاسم؟

×××××

كان قد نصحه المفتي بلقاء القائد العام للقوات العربية قبل الاجتماع الرسمي ببقية الأعضاء والساسة. أفهمه أن هؤلاء لا يفهمون لغة التقارير والأرقام والخرائط ولا يفهمون ما لحصار المستعمرات من قيمة. كما ان التفاهم مع كل عضو على حدة، وبالذات القائد العام، قد يلين المواقف ويجعلهم جاهزين لأخذ القرار بدون تلكؤ. لهذا وصلنا مكتب القائد العام قبل الموعد بنصف ساعة وكان ما زال مغلقا، بدون موظفين ولا سكرتير ولا حارس. فوقفنا في الباب ننتظر ربيع وهو يدور حول البناء ويصعد الأدراج وينزلها بحثا عن البواب أو الحارس.

أخيرا جاء ربيع وبواب المبنى خلفه بالبيجاما وقد وضع فوقها معطفا باليا من مخلفات الجيش أو الحراس، وفي يده رزمة مفاتيح تطلق رنينا واصطكاكا مع كل درجة يصعدها. كان من الواضح انه كان نائما وسحبه ربيع من فراشه، لهذا ظل مسدل العينين لا ينظر في وجوهنا إما غضبا من إزعاجنا أو خجلا من أن نرى آثار النوم في عينيه وجفاف الريق حول فمه.

سألته متشككا:

– اليوم عيد أو عطلة؟

لم يجبني، لكنه فتح الباب وقال بغلظة:

– لا أحد يجيء الآن. الدوام الساعة 9 ولا أحد يجيء قبل 9:30.

سأله ربيع:

– والقائد العام؟

قال البواب دون أن ينظر إلينا:

– السكرتير الساعة 9:30 ومدير المكتب الساعة 10 والقائد العام الساعة 12.

– نعم!!

صاح ربيع فرن صوته مدويا في خواء بيت الدرج واهتز صداه:

– القائد العام الساعة 12؟ موعدنا معه الساعة 9:30!

لم يجب الرجل بل فتح الباب وأخرج المفتاح من السكرة وقفل راجعا من حيث

أتى ورزمة المفاتيح ترن وتصطك مع كل درجة ينزلها. التفت ربيع وقال لي بدهشة وغضب:

– القائد العام الساعة 12؟!

قال قائدنا خلف ظهري:

– أدخل، أدخل، سيبك منه، هذا نائم.

قلت مدمدما:

– الظاهر الجو كله نائم.

لم يكن البواب مخطئا، إذ ان قدوم الموظفين لم يبدأ إلا بعد التاسعة والنصف، وفي العاشرة شرف مدير المكتب والسكرتير والآذن، وبدأنا نشم رائحة القهوة والشاي بالزهورات واليانسون، والآذن يروح ويجيء بفناجين القهوة وأكواب الشاي والزهورات، وطبعا نالنا من كرمهم عدة أكواب وعدة فناجين قبل أن نسمع الهرولة ووقع البساطير على الأدراج ودخول المرافقين والحراس وتكتكات السلاح والسلام العسكري وقرع الأقدام ثم دخل القائد العام كما لو كان من أصحاب الجلالة أو الفخامة. فوقف الموظفون في أماكنهم وقال الواحد بعد الآخر بصوت ذليل متهدل: صباح الخير سيدي، صباح الخير سيدي، سيدي، صباح الخير، ولم يقل هو صباح النور أو صباح الفل لأي منهم. وانتظر منا وهو يشملنا بنظرة كريمة أن نقول له صباح الخير أو سيدي فلم نقل، بل وقفنا بتهذيب واحترام وانتظرنا منه أن يقول لنا صباح الخير لأنه هو الداخل علينا ولسنا نحن، وهو المتأخر أكثر من ساعة ونصف ولسنا نحن، وهو من حدد الموعد وتوقيت الساعة ولسنا نحن. وحين رآنا جامدي الوجوه بلا ترحاب ولا نفاق ولا سيدي قال مبتسما بلا حرارة وكأنه فوجئ بوجودنا في هذا الوقت:

– أنتم هنا؟ أهلا، أهلا.

ثم التفت كي لا نرى حمرة عينيه وانتفاخ النوم في أوداجه ونادى بصوت مجلجل:

– يا أبو محمود أين القهوة؟ هات قهوة وشاي للبهوات.

قال قائدنا وهو يجلس مكانه حيث كنا، في مكتب السكرتير أمام مكتب القائد العام مباشرة:

– شربنا القهوة وشربنا الشاي من ساعة ونص.

لم يعلق القائد العام ولم يلتفت بل دخل المكتب كالطاووس وهو يقول وظهره لنا: أهلا وسهلا شرفتوا. وانتظر منا أن نلحق به، فلم نفعل، وبقينا جلوسا ننظر إليه من موقعنا وهو يجلس على الكرسي الدوار ويفتح الجوارير ويخرج أشياء ويدخل أشياء وعلى وجهه سيماء الجد والأهمية. وبعد دقائق نظر إلينا من مكانه وعلى وجهه علامة استفهام أو تعجب فلكزني القائد وقال لي: قم يا الله بنا، أمرنا لله. ودخلنا، هو وأنا، وبقي ربيع ينتظرنا عند السكرتير بتجهم.

أشار لنا بيده أن نجلس في المقعدين الجلديين أمام مكتبه، لكن قائدنا توجه فورا الى طاولة الاجتماعات الفخمة وفرد الخرائط والتقارير وقال بأدب وجدية وهو يشير بيده:

– إذا تكرمت.

بعد لحظة صمت وتفحص، خرج القائد العام من وراء مكتبه، واقترب من الطاولة وهو ينظر الى ما كان مفرودا أمامه بنظرة باردة مستاءة وقال بلهجة مندهشة:

– ما هذا؟

حاول قائدنا أن يكون صبورا ومهذبا ومحترما لأنه، كما كان يقول لنا، الحق العيّار لباب الدار، والعبرة في الثمرة والنتائج، والمحتاج ذليل حتى لأهله. وها نحن أذلاء أمام أهلنا، أو من يمثل أهلنا، والسلطة الأعلى والأهم من أهلنا لأن بيده الأمر، ومخازن الأسلحة، وما يقول هو القول الفصل والحاسم.

بدأ قائدنا يشرح وذاك ينظر ويتفرج ويتابع يد قائدنا وهي تشير الى الخريطة ويقول بحماس:

– هذه هي القدس، وهذا باب الواد، وهنا القسطل ودير ياسين والعيزرية وهذه مستعمرة كذا وتلك مستعمرة كذا ومن هنا، من باب الواد تمر قوافل التموين ومنعناها، أغلقنا الطرق كلها، كل الطرق، حتى الطرق الترابية أغلقناها بمتاريس وحواجز، والشارع الرئيسي بدبابات لغمناها وحصنا المرتفعات بالمجاهدين وأبناء القرى، كل القرى، أهالي القرى كلهم معنا، رجالا ونساء وحتى الأطفال هم معنا وتحت الندهة، لكن السلاح، مشكلة السلاح والذخيرة، هذه مشكلة، مشكلة المشاكل، وبدونها يُخترق الحصار. نحن الآن في موقع القوة، جوعناهم، وبدأوا يصرخون ويستنجدون ويتواسطون، وشرتوك يصيح في مجلس الأمن أن المستوطنين أكلوا الأعشاب، وبدأوا يرسلون القناصل ورجال الدين كي نتفاهم، لكنا نقول يلقون السلاح أولا ثم نتفاوض ونتفاهم. أترى يا حضرة القائد ما فعلناه؟ نحن فعلا دوخناهم.

قال القائد العام وهو ما زال ينظر الى الخريطة ولا يلتفت الى وجه قائدنا حتى لا يراه:

– طيب، عظيم، هذا جيد.

قال قائدنا وهو يشير الى حزمة الملفات والتقارير:

– وهذه التقارير والإحصاءات والأرقام كلها مدققة مدروسة وراجعتها بنفسي أولا بأول وما عليك إلا أن تلقي نظرة عليها لترى كم هي مرتبه مضبوطة. كل التفاصيل موجودة، كل الأسماء والأرقام والعناوين، كل شيء، كل شيء. كل ما هو هنا مدقق ومضبوط أنا راجعته، تفضل انظر.

سحب القائد العام كرسيا وجلس حول الطاولة وهو ينظر الى الخريطة بتمعن ولم يتطلع الى الملفات والتقارير وقال ببرود:

– طيب، عظيم، جيد، جيد.

وأخذ يتبّع بسبابته فوق لون البحر الأزرق ويسأل بفضول:

– وأين يافا؟

أشار قائدنا بأصبعه:

– هذه يافا.

– وأين حيفا؟

– هذه حيفا.

– وتل أبيب؟

– هذه تل أبيب بجوار يافا.

رفع رأسه وقال مستطلعا:

– ولماذا لا تحاصرون تل ابيب بدل القدس؟

– لأن مستعمرات القدس بوضع أضعف، وإمكانية محاصرتها بإغلاق باب الواد وقرانا فوقها في المرتفعات، من الناحية العملية أيسر وأسهل.

قال القائد العام متأملا الخريطة بتمعن:

– يافا على البحر.

– نعم على البحر.

– وهي ميناء.

– نعم ميناء.

– وتل أبيب؟

– أيضا ميناء؟

– وميناء حيفا؟

– مليء بقوات الانجليز.

– لكن القدس ليست على البحر وليست ميناء.

– القدس يا حضرة القائد العام ليست على البحر لكن أهميتها معروفة، من ناحية دينية وتاريخية، أنت تعرف، كما أنها قلب البلد، قلب فلسطين، لهذا أحاطوها بسوار المستعمرات، أترى هذه وهذه وهذه...

قاطعه القائد العام:

– طيب، طيب، لكني حتى الآن غير مقتنع بمخططكم وبهذا الحصار وأحبذ حصار تل أبيب لأنها قريبة من يافا.

نظر إلي قائدنا وكنت أجلس على مقعد لصق الحائط وأنظر الى الإثنين أمامي وأنا مكتئب وقلبي مظلم. ظلام في قلبي وأمام عيني لكني أرى واسمع وأفهم ما يدور، والقائد يرمقني خوفا من تشاؤمي وما سأقول بعد الجلسة، لكنه كان بحاجة لمن يشاركه إحساسه فابتسمت له، لكن ابتسامتي كما يبدو كانت مرة، فزاح عينيه عن وجهي وعاد يركز على مشروعه وأنا أهمس بسري: يا رب، يا رب! ويبدو أن الرب سمع ندائي إذ بدأ الأعضاء بالتوافد فوجدها القائد العام فرصة ممتازة كي

يهرب من إلحاح قائدنا ومن هذا الخليط المعقد من الأسماء لقرى ومدن سمع عنها، أو لم يسمع، وأكوام الملفات والخرائط.

×××××

لم يرق للقائد العام عدم فهمه. أحس بالغضب – وربما بالحقد – لأننا اكتشفنا مدى ضحالته وجهله. ظل متجهم الأسارير رغم الترحيب والبشاشة في وجوه أصحاب المعالي والعطوفات، ممثلي أعضاء الجامعة العربية، وظل يناديهم يا بشوات ويا بكوات وهو يشير الى المقاعد الجلدية حول الطاولة الفخمة المخصصة للاجتماعات المصيرية. وفورا، قبل أن تسخن مقاعدهم، نادى السكرتير حتى ينادي أبو محمود ليحضر القهوة والشاي والزهورات بسرعة البرق لأن الاجتماع هام جدا، والجميع بحاجة للصحصحة قبل عقد الاجتماع لأن مصير القدس وكامل فلسطين لا يستطيع الانتظار، فالوضع خطير. وتفضلوا القهوة والشاي يا حضرات، وتفضل يا عزيزنا عبد القادر. قال له "عبد القادر،" هكذا حاف من غير باشا أو بيك أو سيد، ورفع الكلفة على اعتبار أن عبد القادر هو فعلا عزيز ولا يتمتع بالبشوية والبكوية ولا هو سيد. وبرحابة صدر وحماس واجتهاد منقطع النظير بدأ قائدنا يشرح الوضع بحرارة وهم يتابعون إصبعه على الخريطة، وأحيانا مسطرته لأنه استبدل أصبعه بمسطرته، كفه الكبيرة كانت تغطي أسماء المدن والقرى والمستعمرات وتضايقهم.

كان يشرح وهم يرشفون القهوة والشاي والزهورات ببطء وجمود لأنهم – كما عرفنا وكما هو واضح – ملتزمون بعهد قطعوه لبريطانيا بألا يعطونا سلاحا ولا ذخائر، وألا يدربونا على حمل السلاح، وألا يعترفوا بالجهاد المقدس وقائدنا. لهذا شكلوا جيشا جديدا وقيادة جديدة تكون تحت إمرتهم وتصرفهم واحتفظوا بسلاح جمعوه باسمنا واسم فلسطين وخبأوه في مخازنهم وتعهدوا ألا يتدخلوا في الوضع إلا بعد انسحاب قوات الانتداب من فلسطين. وعليه، وخوفا من تقولات الناس والصحافة وإرضاء للهيبة وضمائرهم، فهم يسايرون قائدنا عبد القادر ويستمعون لشرحه وهم يهزون الرؤوس ولا يعلقون بنعم أو لا حتى بح صوته وطلب ماء ليشرب ويريح أوتاره ويأخذ نفسا. فاستغل القائد العام تلك الوقفة ونادي السكرتير كي ينادي أبو محمود ليأتيهم بجلبة أخرى من القهوة والشاي والقينر لأن بعضهم ما زالوا يسعلون من أثر البرد ويعانون رشوحات مزمنة والتهابات في الجيوب والقصبات منذ بدء الشتاء، فنيسان ما زال في أوله، وهواء الشام في هذا الوقت جليدي جارح.

كانت الغرفة واسعة وطاولة الاجتماعات مكتظة، ومع الجلبة الجديدة للقهوة والشاي والقينر أخذت أراقبهم من مكاني – لصق الحائط – وأحاول أن أدقق بخلفية كل واحد منهم حتى أعرف من هو معنا ومن هو ضدنا ومن يقف على الحياد ولا ينطق.

كانت الطاولة كبيرة جدا، فصلت خصيصا لأعضاء الجامعة العربية بالإضافة لأعضاء اللجنة العسكرية التي شكلوها لتشرف وتهيئ وتهندس وتخطط وتسعف وتسلح وتموّن جيش الإنقاذ، جيش العرب والمسلمين، لإنقاذ القدس والأقصى والقيامة وكنيسة المهد وغير المهد، وتدمير تل ابيب معقل الغزاة الطامعين فتطهر جنوب سوريا – كما أسموها – وتعيد الجنوب الى حضن الشمال والعروبة بعد تنقيته من الأغراب والشوائب.

بدأت أعد من أول الطاولة لآخرها. بدأت بالقائد العام في قمتها وقائدنا في الوسط بين ممثل الأردن بقائدها البريطاني القدير غلوب باشا[2] وممثل جلالة الملك فاروق عاهل وادي النيل بقطرية الإفريقيين مصر والسودان[3]، وعلى جانبي المذكورين ممثلي لبنان وسوريا. وفي مواجهة هؤلاء جلس كل من ممثل العراق برئيس وزارئه المعروف نوري السعيد[4] والى جانبه ممثل السعودية وآبار النفط والأرامكو[5]، ثم اثنين من زعماء القدس – من استقبلانا وشرّبانا الشاي في مقهى الشام وقالا عن شاربي قائدنا شوارب دوجلاس وتفصيل الجامعة الأميركية. كلهم كانوا جلوسا إلا قائدنا الذي وقف في الوسط منحنيا على الخريطة الكبيرة المفرودة أمامهم وبيده مسطرة خشبية يشير بها الى المواقع ويتلفظ بأسماء غريبة عن المستعمرات العبرية المحيطة بالقدس وفي مواجهتها القرى والخربات العربية. طبعا لم يكن على معرفة بتلك الأسماء والمواقع إلا ممثلينا، زعيمي القدس، لكن هذين، كما تبين لنا في مقهى الشام، وكما سمعنا من مخابراتنا، هما وبقية الشلة، هم من شجعوا الجامعة العربية على عدم تنصيب قائدنا قائدا للقوات العربية لأنه بنظرهم، شاب متهور ومتمرد وخارج على العرف والتقليد منذ صباه لا يلبس إلا المبهدل والكاكي ويربي شواربه على الموضة ويقوم بحركات استفزازية لا تستفز أقطاب وشيوخ عائلة الحسيني فحسب، بل وبقية شيوخ ومشايخ العائلات المقدسية والنابلسية لأنه قدم لأبنائهم النموذج والقدوة وها هم يقلدونه ويحاولون اللحاق به.

بعد هذه الجردة لكامل الأعضاء حول طاولة الاجتماعات لتحرير القدس وباقي فلسطين فهمت أن قائدنا لن ينجح قط، لن يقنعهم، ولن يفحمهم – كما كان يقول – ولن يأخذ رصاصة ولا نكلة من جانبهم. فهم بالإضافة الى عدم ثقتهم به كنموذج اجتماعي أرعن ومتمرد، فهو سياسيا في موقع الخصم لبريطانيا، بريطانيا الصديقة اللدودة المستعمرة الودودة، وهي ما زالت فوق الرؤوس وتقمعهم. ومن لا يحس بذاك القمع يبرره ويدافع عنه ويؤكد أن معاداة بريطانيا شر ماحق وأن مسايرتها وتهدئة خاطرها قد يأتينا بالامتيازات والمنافع. وعليه، فقد كان الاجتماع صوريا أو شكليا، لكن النتيجة حتمية.

رشفوا رشفات بطيئة من القهوة والشاي والقينر وعادوا يتابعون المسطرة الخشبية في يده ويشنفون الآذان لشروحاته.

قال قائدنا بكياسة، بعد كل الشرح والتفسيرات والحماسة، إن كل ما يطلبه من حضراتهم ومعاليهم هو أسلحة حديثة تساعده على الاستمرار في حصار المستعمرات لأن حصار المستعمرات .... وأعاد القصة من أولها عن أهمية حصار المستعمرات وكيف ان اليهود، بعكسنا نحن، يخافون على أرواحهم وأبنائهم وغير مستعدين لدفع الثمن في سبيل بلد ليست لهم وأرض لم يشرشوا فيها ولا تمت لهم، وإنهم إذا دفعوا الثمن، دفّعناهم ما يكلفهم المال والأرواح والخسائر، يهربون من المعركة كما النعاج وبالتالي نحرر أنفسنا وأنفسكم ونخلص منهم.

حين قال قائدنا "نحرر أنفسنا وأنفسكم" رأيت الامتعاض على وجوه الجميع – إلا زعيمي القدس الذين بدأا يتعاطفان مع ما يقول لأنهما سمعا منه ما يعرفان أنه واقع ومعقول وبعيد كل البعد عن الرعونة والتهور. بدأا يحسان بالمقلب الذي ساهما فيه – مع شلتهم – حين رأيا الوجوه العربية– الغربية والأجندات

الزائفة والعمل الفج. بدأا يحسان أنهما أقرب الى صف قائدنا من ممثلي الدول – شبه الدول، وقواد الجامعة العربية. لهذا، حين قال قائدنا "نحرر أنفسنا وأنفسكم" لم يمتعض هذان، بل هزا رأسيهما، بعكس الآخرين الذين تبادلوا نظرات الشك وبعض الغضب، لكن، وبما أنهم لا يريدون المواجهة وكشف الأوراق قالوا لقائدنا: تفضل، أكمل.

أكمل قائدنا بنفس طويل استغربته لأني أعرف كم هو عصبي ونيراني ولا يحب المماطلة والتسويف ويختار أقصر الطرق للوصول لأهدافه. لكني تذكرت ما قاله وهو يهدئني ويعلمني: الحق العيار لباب الدار، والمحتاج ذليل حتى لأهله. وها أنا أراه يطبق حرفيا ما كان يقول، لكني أعرف أن النفاق إذا استمر وجمود الآخرين وعدم تجاوبهم ستفلت عفاريته من عقالها وينفجر في وجوهم ويفجّرهم. لكنه ما زال في طور الهدوء ومحاولة الإقناع والإفحام واستدرار المشاعر ونخوتهم. قال لهم:

– هذه فلسطين العربية بين أيديكم، والشعب العربي ينياديكم لأنكم الزعماء والقادة ومصير الأمة بمختلف أقطارها أمانة في أعناقكم. وإني والله لن أتردد عن وضع عنقي تحت سيوفكم إذا ترددت أو تهاونت أو عصيت أمرا من أوامركم. أنا جندي من جنودكم ولا مأرب شخصي لي إلا تخليص الوطن وتحرير القدس. القدس الجريحة تهيب بكم. أنقذوها، أنقذونا فننقذكم.[6]

قال القائد العام بفراغ صبر:

– أنا يا عبد القادر قلت لك إني غير متحمس لحصار المستعمرات وأفضل حصار تل أبيب حتى نقضي على رأس الأفعى ونحقق نصرا تاريخيا ونمحقهم.

نظر إلي القائد ثانية كما نظر إلي أول مرة حين أثير النقاش حول هذه النقطة بالذات، وهذه المرة رأيت وجهه يبيض كما لو أفرغت دماءه من عروقه فبدأت أرجف وأحسب الحساب لانفجاره. لكنه عاد وتماسك وأخذ يفسر للحضور ما كان فسره للقائد العام حول الصعوبة العملية لحصار تل أبيب وسهولة حصار مستعمرات القدس، وأن هذا الحصار مستمر منذ أسابيع وقد بدأ يؤتي أكله لأنهم بدأوا يرسلون القناصل ورجال الدين للتواسط، وان ما علينا إلا أن نزيد الضغط حتى ننتصر ونسحقهم.

قال أحدهم:

– ولماذا لا تزيد الضغط؟ اضغط كما تريد ونحن معك. اضغط وخلصنا وخلصهم، من يمنعك؟

– لكني قلت لكم إنني بحاجة للسلاح والذخيرة. أعطونا سلاحا وذخيرة وأنا أعدكم أن أخلص على المستعمرات في غضون أيام وبعد ذلك أتوجه الى يافا وحيفا، وطبعا تل أبيب، وقبل 15 آيار، أي قبل خروج الانجليز من بلدنا، نكون قد طهرنا كل المدن والقرى ونعلن الدولة المستقلة ونقدم طلبا للجامعة العربية ونلتحق بكم.

– وماذا تنتظر؟ خلصنا يا أخي واخلص منهم.

– نحن بحاجة للسلاح! أعطونا السلاح نخلص منهم. وإذا فشلت بتنفيذ وعودي أهدروا دمي، اشنقوني، ارموني بالرصاص هنا في الشام، في أوسع ميدان من ميادين الشام، فأنا رهين أوامركم.

وحين وجد جمودا في وجوههم بدأ صوته يرتفع ويتهدج:

– كل ما أطلبه هو السلاح لأن سلاحنا قديم وذخيرتنا مُبرّدة لا تصلح، كنت اشتريتها من السوق السوداء في بيروت ومن الصحراء الليبية، يعني بقايا الحرب وروميل. سلاحنا قديم وذخيرتنا باردة ومعظم بنادقنا لا تصلح لصيد العصافير ورصاصنا شبيه بالدمدم. نحن بحاجة لبنادق حديثة ورشاشات وذخيرة لأن البنادق والرشاشات بلا ذخيرة أشبه بالحطب وعصي الرعيان، يعني المناجل أفضل منها. نحن بحاجة لسلاح وذخيرة!

ظلوا صامتين جامدين بلا حراك ولا تجاوب فرفع صوته درجة أعلى:

– بعد 15 آيار ستحتاجون لأضعاف ما أطلبه الآن، وحتى عشرة أضعاف لن تكفيكم لأن الأوان يكون قد فات ويكونون قد استقروا وتثبتوا في مواقعهم.

جمود وصمت، ونظرات متبادلة وحرج ووجوم.

بدأ يستعطف ويسترحم فأحسست بقلبي يتهاوى لأني أعرف كم هو عزيز النفس ومتمرد، لكنه كان ما زال يطبق ما كان يقول حول ذل المحتاج حتى لأهله.

تهدج صوته:

– أستحلفكم بالله، أناشدكم. القدس أمانة في أعناقكم، أنقذوها.

هب القائد العام وقد نفذ صبره:

– ولماذا كل هذا الاهتمام بالقدس أنا لا أفهم! لو كانت على البحر لاستحقت، لكنها ليست على البحر. لو كانت على البحر لساعدناك وأعطيناك، لكنها ليست على البحر ولا هي مرفأ.

أنا صعقت، وقائدنا صعق وجمدت عيناه واهتز شارباه وأصابه الخرس ولم ينطق. لم يكن يظن أن الغباء والجهل والعبثية قد يصلوا الى هذا الحد. فقد القدرة على النطق وظل صامتا شاحبا ينظر الى أعلى الحائط فوق رأسي وقد وجد أن النظر في عيني لن يسعفه ويخفف عنه، بل ربما يستفزه. واصل القائد العام وقد وجد في بعض الوجوه استغرابا وشكوكا فقال موجها الكلام لقائدنا حتى يفحمه بالضربة القاضية:

– يا عبد القادر، يبدو أنكم تخافون من اليهود وتقدرون قوتهم أكثر من اللازم. نحن نعرف الحقائق والأوضاع أكثر منكم. لدينا من القوات ما نستطيع بها القضاء على اليهود أينما كانوا، في أي مكان، وليس فقط في فلسطين. دعهم يحتلون القدس وحيفا ويافا وكل فلسطين ونحن نسترجعها في رمشة عين. لكن الآن، لا نستطيع الآن، أنت لا تعرف الظرف الآن. نحن نعرف الأوضاع والظروف والحقائق.

وضرب على الخريطة بكف يده وكرر ثانية وهو يتلفت في الوجوه بحثا دعم:

– نحن نعرف الأوضاع والحقائق أكثر منك.

صاح قائدنا وقد فقد صبره وأعصابه:

– أنت تعرف؟ ماذا تعرف؟

قال القائد متحديا وقد أصيب في كبريائه:

– أعرف كل شيء، أعرف، أعرف.

انحنى قائدنا وقرب وجهه من وجهه وهدر فيه:

– أنت لا تعرف قراءة التقارير ولا تعرف قراءة الخرائط. أنت لا تعرف أين القدس وأين حيفا ويافا وتل أبيب. أتحداك أن تشير بيدك هذه أمام الجميع أين تقع القدس وحيفا ويافا وأين تل أبيب.

واستدار بعينيه في الوجوه محملقا وقد فقد كليا أعصابه:

– أتحداكم كلكم أن تقولوا لي هنا، على هذه الخريطة، أين تقع عكا وصفد وأين نابلس؟ أنا لا ألومكم بل ألومه هو، وقد وكلتموه بالإشراف على جيشكم المبجل القابع فوق مزابل جبع ويحرسها. هل تعرفون أين جبع وأين يقف جيش الإنقاذ؟ جبع يا سادة بعيدة عن خط الاشتباك 15 كيلومتر، ونحن مجاهدو الجهاد المقدس على بعد أمتار من المستعمرات ومواقعهم. نحن وسطهم ونحيط بهم ونواجههم. ويوميا، يوميا نشتبك بهم. تريدون تحرير فلسطين من مقاعدكم؟ وأنت يا سيادة القائد العام تريد كسب المعركة من هنا؟ من مكتب يبدأ الدوام الساعة 12؟

وضعت يدي على عيني لأني خفت من البقية، لكنه واصل بصوت مبحوح وقلب ينزف:

– شكّلتم جيش الإنقاذ بعد أيام من تشكيلي للجهاد المقدس، مع إني لم أشكله إلا بتشجيع منكم. طالبتموني بكتب رسمية أن أقوم بتشكيل الجهاد المقدس وفرق وخلايا في القرى والمدن للمقاومة الشعبية، ولديكم قوائم بأسماء القواد والمواقع وعدد ما لدينا من سلاح وذخيرة. أنتم تعرفون كل ذلك، وتعرفون أني أنا ابن البلد وأعرف مداخلها ومخارجها وكل مدنها وقراها والجبال والوديان والمحاجر. ورغم ذلك أوكلتم قيادة جيشكم لرجل منكم ولم أقل لا ولم أتمرد. قلت آمين وألف شكر وكثر الله خيركم. لكنكم الآن تنكرون علي حقي في الجهاد وتبخلون بالسلاح وأنا في عز المعركة ورجالي ينتظرون ويتحرقون ويحترقون في مواقعهم. ماذا أقول لهم حين أرجع؟ أقول لهم تريدون قتلنا؟ تريدون ذبحنا؟ تريدون تسليم رقابنا لليهود ليذبحونا ذبح النعاج وقد بات لديهم الطيارات والدبابات والمصفحات وأسلحة تتساقط عليهم كرش المطر من بريطانيا وفرنسا وأميركا وحتى روسيا وبواخر العتاد تنقل لهم كل يوم، كل ساعة، أسلحة ودبابات وذخائر، وأنتم أخوتنا وأهلنا

وعشيرتنا تبخلون علينا ببعض الأسلحة وهي مكدسة في مخازنكم؟!

قال أحدهم مهدئا:

– لا يوجد لدينا سلاح يا عبد القادر! أمن المعقول أن يكون لدينا سلاح ونبخل به عليكم.

قال القائد بصوت أخفض وقد خجل أن يواجههم بكذبهم ويفضحهم:

– لديكم، لديكم، أنا أعرف.

قال آخر:

– أبدا، أبدا، أنت غلطان، لا يوجد لدينا سلاح، أنت واهم.

قال محتدا:

– بل لديكم سلاح وذخيرة. لديكم رشاشات ومدافع، لديكم ذخيرة بالأطنان وكلها جديدة وحديثة.

– من قال لك؟ هذا كذب، هذا ادعاء وإشاعات.

صاح هادرا وهو يضحك بهستيريا:

– إشاعات؟ إشاعات! ماذا تقولون لو قلت لكم إني رأيت الأسلحة في مخازنكم، في المزة، وهي ما زالت في صناديق خشب وكرتون، ما زالت ملفوفة بورقتها وتصل سقوف مخازنكم، أنا رأيتها بعيني هذه وعاينتها وأحصيتها وهذه قوائم بأعدادها وأنواعها. ماذا تقولون؟ أصدق عيني أم أصدقكم؟

بهتوا وحملقوا وبعضهم وضع يده فوق عينيه وآخر خبأ فمه بيده فصاح القائد العام محتدا وقد افتضح الكذب:

– هذه الأسلحة لنا، لجيش الإنقاذ.

صرخ قائدنا:

– ما زلت تقول جيش الإنقاذ؟ وأين هو جيش الإنقاذ؟ أنا قلت لكم أن جيش الإنقاذ ما زال يحرس مزابل جبع، وقلت لكم إن جبع تبعد 15 كيلو متر عن خط الاشتباك ولم يدخل معركة واحدة حتى الآن، ما زال ينتظر أوامركم والأسلحة المكدسة في مخازنكم. جيش الإنقاذ لم يدخل معركة واحدة حتى الآن، أما نحن، أنا ورجالي، لم نترك قرية أو مدينة إلا قاتلنا فيها ونزفنا فيها واستشهدنا فيها. من منكم يعرف ما ذقناه؟ من منكم يعرف ما عرفناه؟ نحن نعرف البلد ونعرف اليهود ونعرف الانجليز ونعرف تفاصيل خطة نخشون. قولوا، قولوا، من منكم يعرف خطة نخشون؟لم يجبه أحد. عاد يكرر:

– أنا ابن البلد، ابن موسى الحسيني، من منكم لا يعرف ما فعل أبي؟

همس أحد زعماء القدس ، لم يسمعه قائدنا لكني سمعت:

– بدأ يتشدق بأمجاد الحسيني وما خلّف!

وقال آخر:

– ويتشدق بذكر المجاهدين والفلاحين وكل ما لديه 600 مقاتل لا أكثر!

سمعه قائدنا فقال مصححا:

– بل 700 مقاتل من فضلك، وهؤلاء ال 700 مقاتل أفضل بكثير من 7 آلاف مخاتل.

قال القائد العام مزاودا:

– نحن لدينا 15 ألف.

وقال آخر:

– بل 50 ألف[7].

قال قائدنا ساخرا:

– 50 ألف وانشاء الله يصبحون 60 ألف كعدد القوات اليهودية.

قال القائد العام مستهجنا:

– 60 ألف؟ عدد اليهود 60 ألف[8]؟

قال قائدنا مؤكدا وهو لا ينظر في وجه القائد العام:

– عدد قوات اليهود 60 ألف جندي مدربين أحسن تدريب ومسلحين بأحدث سلاح ولديهم قيادة قديرة ومخططات، وأهم مخططاتهم خطة نخشون، هل تعرفون خطة نخشون؟

أجاب القائد العام متباهيا بمعرفته التي حصل عليها قبل الاجتماع:

– نعرف، نعرف.

لم يلتفت إليه وقال للآخرين:

– هو يعرف لأني قلت له عنها هذا الصباح، لكنكم انتم لا تعرفون. خطة

نخشون يا سادة هي التالي: أولا، يريدون اغتيال القادة بما فيهم أنتم هنا في الشام. ثانيا، يريدون إفراغ البلد وتهجيج الناس بارتكاب مذابح جماعية. ثالثا، يريدون فلسطين، كل فلسطين، من البحر الى النهر ثم اللحاق بكم حتى الفرات والسيطرة على كل عاصمة عربية.

أخذوا يتهامسون ويهمرون ويهزون الرؤوس ويكشون الهواء بأيديهم، فقال القائد العام وسط الفوضى:

– ما هذه المبالغات والإشاعات؟ تريد تخويفنا وبث الرعب في قلوبنا؟ إلعب غيرها.

– ألعب غيرها. طيب خذوا.

وأمسك برزمة التقارير ورماها في وجوههم وهو يصيح:

– ألعب غيرها؟ هذا فهمكم للجهاد والدفاع عنا وعنكم؟أنتم خونة. أنتم متآمرون علينا وقبضتم ثمن رؤوسنا وثمن فلسطين.

قال أحدهم وهو يقوم عن الكرسي إما درءا لما هو أسوا أو خوفا من القائد المسلح أمامهم:

– نرفع الاجتماع لنتباحث:

فأيده أكثر من واحد وقالوا معا وهم يفزون عن مقاعدهم:

– نرفع الاجتماع لنتباحث.

ورفعوا الاجتماع للتباحث.

×××××

اجتماعنا الثاني من أجل السلاح كان مع المفتي والأمين العام، أمين الجامعة العربية. أخذنا المفتي الى مكتبه وقال لنا إن الرجل ألطف من هؤلاء وأذكى وأنظف. الرجل سياسي متعلم، الرجل خلوق ومثقف، والرجل يقرأ ويفكر ولديه نزعة قومية. قلنا آمين، أحسن من بلاش، ودخلنا المكتب يحدونا الأمل بقلب مفتوح.

استقبلنا الرجل بالأحضان وعانق قائدنا وقبل رأسه وهو يقول بحب وحماس:

– رفعت رأسنا يا بطل.

فوجئ قائدنا وهو يرى الرجل الكبير يستقبلنا بهذا الحماس والعواطف وقال بخجل:

– أنا ما فعلت إلا الواجب.

– بوركت، بوركت، والآن، ما آخر الأخبار وأخبارك؟

وبدأ قائدنا يقص القصة من الأول... حصار المستعمرات، خطة نخشون، تآمر الإنجليز مع اليهود لإخلاء البلد وتهجير الناس، تزويد اليهود بالمال والسلاح والطيارات والدبابات والبواخر، ونحن ليس لدينا ما يكفي حتى نستمر على الأقل بحرب عصابات. كل ما نطلبه هو بعض القطع من مخازنكم، وبهذا السلاح ننهي الإشكال لأن حصار المستعمرات يوجعهم، والشارع اليهودي يتذمر ويطالب القيادة بحل سريع، ونحن ما زلنا بموقع القوة لأنّا بالفعل نخنقهم، لكن السلاح هو المشكلة، أرجوك يا حضرة الأمين العام، أعطونا بعضا مما لديكم يجزيكم الله، وهذا المعروف أنا لن أنساه طوال حياتي، هذا الجميل في يوم ما سوف أرده.

استغفر الله، استغفر الله، قال الأمين العام وهو خجل من الموقف، ومن نفسه، ومن القادة العرب، وتعهد بالتوسط لنا حتى نعود الى فلسطين وبيدنا سلاح. لكن للأسف، بعد ساعات من الأخذ والرد والاتهامات في اجتماع دام حتى الصباح، خرجنا من الاجتماع كما دخلنا، صفر اليدين، مكسوري الفؤاد والخاطر، وبدون سلاح.

×××××

الاجتماع الثالث من أجل السلاح كان يوم 5 نيسان، في الصباح التالي للاجتماع السابق، ولم نكن قد نمنا سوى ساعتين. أيقظنا خبر سقوط القسطل، وأخبار مشؤومة عن سقوط قتلى وجرحى مدنيين وعدة شهداء. هرعت وربيع الى قاعة الإفطار على أمل ألا نجد قائدنا هناك، ولم يكن. عدنا الى غرفته فوجدنا الباب موروبا غير مغلق، والقائد بملابسه العسكرية كما لو لم ينم، أو نام بها، بدون الحطة، شعرة واقف، يذرع الغرفة كنمر هائج. حين رآنا بدأ يهدر ويصرخ ويقول هذه بداية النهاية، ويشتم ويهدد ويتوعد. استمعنا لنزيفه بصمت مطبق والخوف والأسى يعتصرنا. وقف قبالتي ووجهه يتفجر بالحمرة، وعيناه كما لو كان يبكي أو يعاني رمدا ربيعيا، فطأطأت رأسي ولم أنظر خوفا منه أو خوفا عليه، فقال لي بصوت هادر:

– اطلب لي المفتي والأمين العام ودبر لي

اجتماعا من تحت الأرض.

هرعت الى التلفون وبدأت أجري الاتصالات. وبعد أقل من ساعة تمكنت من تحديد موعد لاجتماع جديد، وهمست للمفتي بالسماعة بأن وضع القائد جدا مقلق ورجوته أن يكلمه حتى يهدأ وألا يقوم بعمل خطير متسرع. قال المفتي دعني أكلمه. فكلمه طويلا وحذره من القيام بأي عمل مخل لأن الوضع لا يتحمل. نحن بحاجة لكسب الآخرين، قال له، وأعاد تذكيره بالأمثال المألوفة مثل إلحق العيار لباب الدار ونريد العنب لا مقاتلة الناطور وما شابه. كما ان ناسنا هناك بحاجة لقيادة تتروى في معالجة الأمور ومقاتلونا يواجهون أصعب الظروف بعد القسطل، والبلد بحاجة لحكمتنا والصبر والأناة والتدبر. وأنهى المكالمة بآية قرآنية فرأينا القائد يهز برأسه ودموع شفافة في عينيه ويقول همسا: آمين، آمين.

بعد دقائق من الصمت بدت كالدهر قفز عن سريره وقال لنا:

– يا الله يا شباب، يا الله نفطر. نحن بحاجة لبعض الطاقة حتى نستمر بهذا الصراع. هذا اليوم هو الحاسم.

ومشى أمامنا فلحقنا به، وأكلنا لقيمات معدودات وشربنا الشاي، ثم توجهنا لاجتماع جديد، وصراع جديد من أجل السلاح، ومن أجل البقاء.

ابتدأالاجتماع كالعادة بالوجوه نفسها وعلى الطاولة نفسها ونفس الأجواء، مع القهوة والشاي والزهورات والقينر والابتسامات والمصافحات التي غالبا ما تنتهي بالقبل وكأنهم لم يروا بعضهم منذ أشهر، والقائد العام بوجه مشرق وشعر ممشوط ومسبسب بالبريل كريم وقطع ملونة كالفسيفساء تزين صدره تشير لمكانته وإنجازاته وراعي في هذا اليوم، وهو الحاسم، أن يزيد عددها ويبرزها بشكل ملفت حتى يقنعنا ويفحمنا فنغض النظر عن تياساته ثم نجثو على ركبنا نلهج بالحمد وأمجاده.

بعد شرب القهوة والشاي والقائد العام يتصدر الطاولة وبسمة واسعة على شفتيه بدأ الاجتماع. كان منشرح الأسارير بشكل ملفت كما لو كان سقوط القسطل انتصارا له وهزيمة كاسحة لخصمه تساهم في تثبته تحت قدميه بعد أن ذُل وهزم وكُسرت عينه.

بدأ الاجتماع بقول يقطر بالسم والتشفي. قال:

– الآن وقد سقطت القسطل، قل لي يا سيد عبد القادر، (قال "سيد" لا للاحترام بل للتنديد) قل لنا بوضوح إن كان بإمكانك أن تسترجعها لأنها كما كنت تقول هي الأهم والأقوى بين كل القرى في المرتفعات. قل لنا بوضوح، هل تسترجعها أم أن نقوم نحن بذلك؟[9]

احمر وجه قائدنا لكنه تمالك أعصابه والتفت عن القائد العام وتوجه بالكلام للآخرين:

– القسطل يا بشوات مأخوذة من كلمة "castle" ومعناها حصن. بناها الرومان لمنعتها، وما زالت القلعة موجودة وليس من السهل استرجاعها ببنادق إيطالية وتركية وألمانية اشتريتها من السوق السوداء ولملمتها من الصحراء الليبية. هذا طبعا بالنسبة لنا، أما بالنسبة لمن لا يعرفون طبيعة البلد ومساربها فمن الصعب عليهم الوصول لها لأنهم يجهلون الدروب المفضية الى القمة. أما نحن، أبناء البلد، وخصوصا أهالي المنطقة من المجاهدين، فباستطاعتهم التسلل من بطن الجبل واختراق الدروب الخلفية. وأنا أعدكم وأتعهد لكم باستردادها فورا وفي أسرع وقت إذا قدمتم لنا مدفعية وبعض قطع السلاح من مخازنكم. أنا أتعهد باحتلال القسطل وكامل المستعمرات وأقدمها لكم مستسلمة قبل 15 آيار، وإذا فشلت حاكموني واشنقوني هنا في الشام، في أكبر ميدان من ميادين الشام، واجعلوا مني فرجة لكل العرب والمسلمين.

عاجله القائد العام خلف ظهره بقول أحد من الخنجر:

– يا أهل فلسطين! لا شغل لكم إلا طلب السلاح وليس لدينا المال والسلاح، نخلقه لكم؟!

قال قائدنا ببرود شديد دون أن يلتفت خلف ظهره:

– واجبكم كقادتنا أن تعيرونا السلاح إن نحن طلبناه أو احتجناه. أعيرونا السلاح، إعارة فقط، ونحن نرده بعد التحرير مع بوسة يد. نحن ندافع عنا وعنكم. وهذا السلاح جمع باسمنا واسم فلسطين.

القائد العام، حتى يلفت النظر إليه ويبعد الآخرين عن الاستماع لقائدنا، أخذ يقوم بحركات بهلوانية برفع يد وإنزال يد ويقبض على الهواء بقبضته ويقول ضاحكا:

– هذه دبابات، خذها ، تفضل.

ويرفع يده اليسرى ويقبض على الهواء ويقول ضاحكا:

– وهذه مدافع، خذها حبيبي، خذها، تفضل. تريد سلاحا؟ ما فيه سلاح. تريد مالا؟ ما عندنا مال. نحن نعرف شغلنا ونعرف الحقائق ولدينا ما يكفي من المعلومات.[10]

نظر إليه قائدنا باحتقار وقرف وقال وهو يشنّك حاجبيه وزوايا شفتيه:

– ما هذا الهراء! ما هذا العبث بمصير الناس والأوطان؟! ألا تخجلون؟ هل أشحذ منكم ما ليس لكم؟ هل أشحذ منكم أموال الشعب؟ أين ذهبتم بثمانمئة بندقية ومئة وعشرين رشاشا تبرع بها أخوتنا اللبنانيون واشترطوا أن تسلم لنا، لي شخصيا، وليس لكم. مخازنكم مليئة بأنواع الأسلحة فلماذا تصادرون ما ليس لكم؟ لديكم أسلحة في مخازنكم تكفي جيشين، بل عشرة، رأيت بعيني.

قال القائد العام ببلاهة أخجلت الحضور فغضوا النظر وأخذوا يتهامسون فيما بينهم، لكنه واصل بصفاقة:

– هذا السلاح يلزمني لأفواج جديدة سأشكلها. أف يا سما نزل مورتر لعبد القادر!

لم يجبه قائدنا وتجاهله ووجه كلامه للمجموع وقال بلهجة يائسة وصوت مبحوح:

– لا تعطوني سلاحا من مخازنكم؟ على الأقل أوعزوا لقيادة جيش الإنقاذ حتى يعيروني مدفعية لمساعدة المجاهدين في جبال القدس.

سأله القائد العام وراء ظهره:

– تستعيرون المدفعية؟ وماذا لو استولى عليها اليهود.

التفت قائدنا وواجهه مباشرة وسأله سؤالا حاول أن يرده الى صوابه:

– ومن الأهم؟ القدس وفلسطين أم مدفعيتكم؟

رد الآخر بنبرة متشككة كما لو كان مدفوعا بالحرص والتدبر:

– وماذا لو انتصر اليهود وأخذوها؟

– وما فائدة المدفعية إذا انتصروا؟

أسقط في يده فزهقت روحه وقال غاضبا:

– خلاص ماكو، ماكو مدفعية، ماكو سلاح وماكو مال وماكو قنابل.

جن جنون قائدنا وبدأ يصيح كنمر هائج:

– سيسجل التاريخ أنكم السبب في ضياع القدس وبقية فلسطين. أنتم المسؤولون عما سيحل بنا وبكم. أنتم متآمرون مع بريطانيا. أنا سأموت ولن أستسلم. سأحتل القسطل بلحمي ودمي ولحم رجالي ولن أستسلم، وسيسجل التاريخ ما فعلتم. أنتم متآمرون. أنتم خونة.

وسحب الخريطة الممدودة على الطاولة، قبض عليها، لوح بها ثم قذفها في الوجوه وهو يصرخ:

– أنا مستقيل من قيادتكم.[11]

وخرج من الباب وصفقه بعنف فاهتز البناء، ومشى أمامنا كأنه يركض، ونحن لحقناه حتى خرجنا ووقفنا على الرصيف تحت السماء ونحن نلهث. وبعد دقائق من الصمت والوجوم والتنفس سمعناه يقول:

– اسمعوا يا رفاق. هذه بداية النهاية وليس أمامنا إلا التالي: إما أن ننتحر هنا في الشام، أو نذهب الى بغداد ونختفي فيها، أو نعود الى فلسطين ونموت هناك، ماذا ترون؟

وقبل أن يسمع إجابتنا سمعناه يقول:

– نذهب الى فلسطين ونموت هناك.

ومشى أمامنا كأنه يركض، ونحن أسرعنا ولحقناه به.

×××××

طريق الرجوع كانت صعبة. كنا كحفنة أيتام مطرودين من حفل لئام. كانت قلوبنا مكسورة وإحساس بالخذلان والمهانة يجللنا. أحسسنا أنّا بلا أهل ولا صاحب وبلاد العروبة تلفظنا. لم يبق لنا ما نقاتل به إلا ما قال قائدنا، لحم الأجساد

والإيمان وإرادتنا. هل كان يصدق ما قاله، أن الأجساد والإيمان وإرادتنا ستكون المعجزة وتنقذنا؟ لو كان يصدق ما قاله، فهل كان ينفخ ويتنهد وما بين الفينة والأخرى يطلق حوقلة وتكبيرا أو يدمدم بأبيات شعر يحفظها أو قرضها حين كان مشردا في غربته وعاد هنا ليعيش فجيعة أوطانه؟

قلت له وأنا أسمع أبيات الشعر تنطلق منه، بيتا وراء بيت ثم البسملة أو التكبير، وتعود الأبيات لتتدحرج كحبات عقد مفروطة تقفز قفزا، تنسل من الخيط وتتدحرج:

– لمن هذا الشعر يا قائدنا؟

لم يجبني بل التفت إلي يتأملني بعينين ساخرتين وبسمة صفراء محزونة. كان جميلا حتى في حزنه وانكساره. الوجه الأبيض وقد خلت منه الحمرة يعلوه الشحوب، والشارب الأسود الممتد على شفتيه يبرز حيويته وعنفوانه، وعيناه الصاحيتان الناعمتان الحساستان كعيني أب حنون أو شاعر. لا خشونة فيه ولا قسوة، ولو لم أكن أعرف ماضيه وحاضره وأعماله وقابلته مصادفة في الشارع أو في أحد البيوت لقلت رب أسرة متفرغ وأب لعشرة أطفال أو أكثر وزوج سعيد في زواج مريح! كل مرة أكتشف وجها جديدا أقول لنفسي هذا هو الأصل. وبعد يومين أو ساعتين أو دقيقتين أكتشف وجها لم أتخيله أو أحلم به. وجه العسكري، وجه الوالد، وجه القائد، وجه العالم في مختبره، وجه الدبلوماسي الواضح لأن الأشياء حين يقولها تخرج من قلبه وضميره. يدخل في الناس ويتشكل في أي إناء بدون ادعاء وتصنع، مع الفلاحين والبسطاء ووفود النساء والقناصل والصحفيين ثم الشاعر.

سمعته ينشد ونحن نخرج من درعا ونشرف على الرمثا وسهل الأردن:

حدثيني عن بلادي حدثيني
خبريني كيف سادتها عداها
حدثيني كيف داسوا في حماها
حدثيني يا بلادي حدثيني

سألته متهيبا:

– عبد الرحيم محمود؟

التفت إلي وابتسم برقة ولم يجب، فتوقعت أن يكون الشعر لعبد الرحيم محمود لأني أعرف كم كان مغرما بعبد الرحيم محمود، لكنه واصل الإنشاد بأبيات لا تشي بعبد الرحيم محمود وأسلوبه. كانت أبسط، كانت أوضح، كانت تشير الى نفسه بأسلوب دقيق ومباشر، وكأنه يعالج بها هبوطا في النفس ليرفعها:

إني الصبور على البلى وكأنني الطود الأشم
هوج الرياح تحطمت والطود ثابت لم يضم
تزداد نفسي منعة ما حل خطب وادلهم

رددت البيت الأخير من خلفه بنبرة ساخرة حزينة وكأنني أقول لنفسي هذا مكابرة وادعاء، هذا عبث. فالتفت إلي وحدق في وجهي يتفرسني. ورأيت

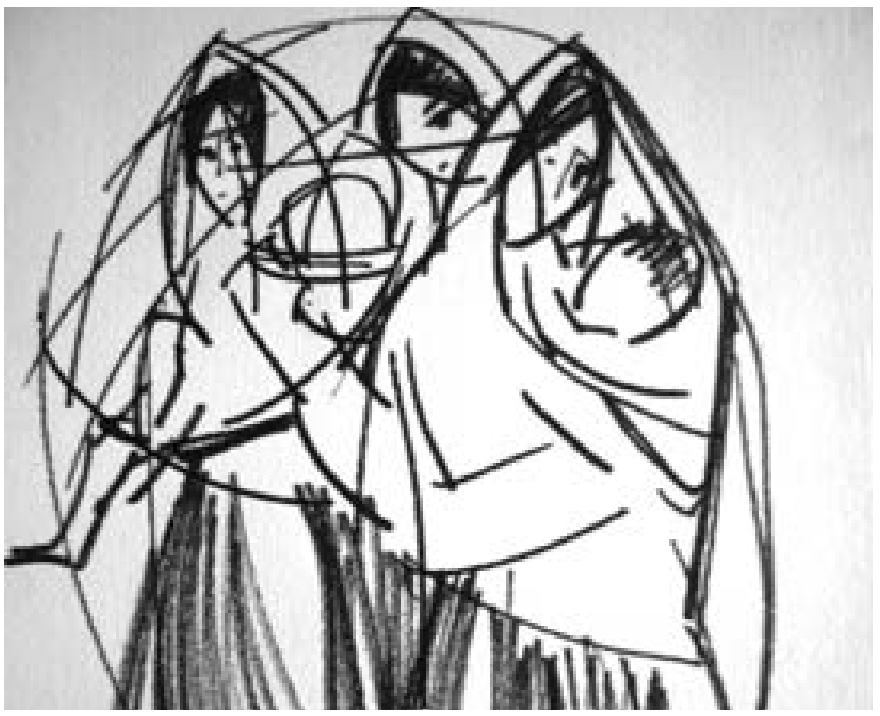

في عينيه الحانيتين نظرة أب يؤنب ابنه فلم أستطع منع نفسي عن التعبير عما بي فأعدت البيت وأنهيته بعلامة سؤال وتعجب: تزداد نفسي منعة ما حل خطب وادلهم؟! فأجابني بأبيات ربما كتبها لأولاده، وها هو يوجهها إلي كما لو كنت واحدا منهم أو شبيها لهم:

بنيّ خذوا مني نصيحة والدٍ عركتُ نواصي الدهر والدهر قلّبُ
كما الدهر عبد للجَلود فإنه وإن جمَعَ الويلات بالحزم يغلبُ

حينذاك تأكدت أن الأبيات له فقلت مذكرا:

– يا قائدنا أنت تشعر!

هز رأسه وقال بإحساس:

– ومن منا يا ولدي لا يشعر؟

أحسست بكلمة ولدي تنزل على رأسي كالسكين، اخترقت قلبي وهزتني لأني تذكرت أولاده وتذكرت أني أصغره لا في السنين فحسب، بل بالإيمان. هو كان مؤمنا وصادقا حين قال سأقاتل بلحمي ولحم رجالي وأنا شككت بكلماته وعقلي المرتاب أوعز لي: أمن المعقول أن نقاتل الطيارات والدبابات والمدافع بلحم الأجساد؟ لكنه هو لم يشكك، بل آمن أن الويلات بالحزم تغلبُ. فمن أين الحزم يا قائدنا؟ من أين الحزم؟

قلت له وأنا أعتصر مرارتي وأفتح قلبي وأعترف له أني شكاك ومتقلب. أحيانا أندفع كالمجنون، وأحيانا أتخاذل وأتذبذب وأشعر بالضعف فأتراجع. ماذا أفعل؟ هل أنا سيء؟ تأملني باسما وقال بحنان:

– وما وجه العيب في ذلك؟ كلنا نضعف.

– لكنك أنت لا تضعف!

– من قال لك؟

– أنا أقول، لأني أراك كالصخرة لا تتزحزح.

– من قال لك؟

– تواجه اللئام ولا تفتُر.

– من قال لك؟

– وتظل تقول إن الويلات بالحزم تغلبُ.

– هذا قلبي.

– ظننته عقلك.

– العقل يشك، العقل يمحص ويحلل، لكن القلب إذا آمن لا يتزحزح، يصمد كالصخر.

– لكني أنا ... أنا أصغر منك.

– طبعا أصغر.

– لم أقصد العمر.

– لا تتواضع. أنا أثق بك. أنت الأمين على سري وأخوك رفيقي وصديقي وأختك داوتني وأنقذتني، هل تتذكر؟

– أنا الأمين على سرك لكني أعترف، وبحزن أقول، لست الأمين على سري. أنا دوما أشك وأتأرجح. لا أصمد يوما على فكرة. غيرت حزبي عدة مرات.

– أهناك سبب؟

– أبحث عن حزب يقنعني، يملأ قلبي، يجيب أسئلتي وظنوني. أريد أن أجد ما يملأني كالحب العظيم، كحنان الأم، ثابت، واضح، لا يتغير، كحنان الأم، أنت تعرف!

– لا لم أعرف. أنا عشت يتيما من صغري، لكن جدي وجدتي لم يشعراني بغياب الأم. كنت محاطا بدفء الجدين وربما من كثرة الدلال أفسداني.

– أنت أفسدت؟ من يصدق!

– بلى أفسدت. حصلت على كل شيء بلا تعب وبشكل سخي. كانا يريدان تعويضي عن حنان الأم فنشأت مدللا نزقا أتيه دلالا وفخارا. مال وجاه وفتوة. كنت متباهيا مزدهيا الى أبعد حد، وشبابي ساهم بالتغرير بي. كنت جميلا تلك الأيام.

قلت بحماس:

– ما زلت شابا وجميلا، ما زلت، ما زلت.

هز رأسه كما لو كان ابن ثمانين وقال بحسرة:

– كانت أيام! كنت صغيرا ثم اكتشفت أن كل ذاك وهم زائل. رأيت أبي الشيخ الجليل المتنفذ يضرب بالعصا مثل العبيد فقلت لنفسي، إن كان هذا الرجل وهو الأبرز، وهو الأهم والأغنى يضرب بالعصا كما لو كان عبدا أو دابة، ولم يشفع له غناه ومركزه، فكيف يعاملون من هم أضعف؟ كيف يعاملون البسطاء والضعفاء والمحتاجين؟ كنا في المظاهرة نعبّر بطريقة سلمية ولم نلجأ للعنف فداسونا بالخيل وضربونا بكعوب البنادق والسنجات، ثم الرصاص كزخ المطر، وأبي وقع على الأرض بعد الضربة، لم يحترموا شيخوخته وضعفه، وأنا صغير ومراهق.

فبدأت أتمرد وأتنمرد وفي الجامعة...

– في الجامعتين.

– في الجامعتين، ربما تعرف.

– سمعت من الناس.

– وأبي الجليل مات بعد الضربة بأيام، وأنا أتحدى وأتمرد وخرجت على العرف والمألوف فاتهموني بالرعونة والتهور، لكن الثورة أخذتني وأبو كمال تبناني. أبو كمال الرجل الكبير الكريم الحنون المتقشف، أعطى كل شيء ولم يأخذ.

– وأنت مثله.

– تعلمت منه. فما نفع المال والوجاهة؟ ما نفع الأملاك والعقارات؟ متاع الدنيا، وهم زائل. أبو كمال باع أراضيه قطعة قطعة ولم يأخذ شيئا لنفسه. باع الدنيا ونسي عائلته وأولاده ووهب نفسه لجهاد الحق. ذاك الرجل، ذاك العظيم، كيف أنساه!

– ورغم ذلك لم يقدروه ولم يحترموه وعاملوه كما عوملنا.

– وربما أكثر! نحن لدينا الجهاد المقدس والانتصارات ولم تبق صحيفة في العالم العربي إلا ذكرتنا ومجدتنا. لم نخسر معركة واحدة. بعد معركة بني نعيم لم نخسر موقعة قط وتعلمنا. وباعترافهم نحن الأبطال، والورقة الرابحة في أيدينا. مئة ألف أسير في قبضتنا والناس يشيدون بقيادتنا ويثقون بنا. علمناهم معنى الثقة، أثبتنا لهم فجادوا علينا بكل ما لديهم وأعطونا. لكن السلاح، مشكلة السلاح هي المشكلة. وأبو كمال واجه ما واجهناه فذهب إليهم يستنجد بهم، وها أنت ترى ما فعلوا بنا.

– ثم انتحر؟

– يقولون انتحر. ربما انتحر. لو كنت مكانه ألا تنتحر؟

– أنا قد أهرب.

– تهرب؟ إلى أين؟ كانت الثورة قد فسدت، وتناحر الزعماء والمخاتير والمشايخ، فذهب الى الشام يستنجد بهم، ذهب كما ذهبنا، وعاد محزونا كما عدنا، ولم يبق لديه أمل في شيء. ربما أحس أنه بحصار فلم يهرب، واجه قدره.

– الناس يقولون لو انه هرب لكان أشرف.

– أشرف؟ أشرف! لكن الى أين؟ الثورة كانت في ورطة. فوضى وسرقات واغتيالات وخراب داخلي وتذمر وقطاع الطرق وأمثال الزيبق وأبو جلدة صالوا وجالوا، كانت النتيجة محتومة. لم يبق لديه أمل في شيء. لو هرب واختبأ ثم ماذا؟ أن يعتقلوه ويشنقوه أمام الناس وهو القائد؟ أن يذلوه ويسحلوه فيقدم للناس أبشع صورة؟ عاش عزيزا ومات عزيزا. ظل بعزته وكرامته. حتى الإنجليز انحنوا له، احترموا شجاعته وعزة نفسه. قائد الحملة الإنجليزي وقف أمام جثته وأدى السلام العسكري لجثمانه. أهناك شرف أكبر وأعظم من هذا الشرف؟

– وهل نحن بحاجة لاعترافهم حتى نكون أشرف وأعظم؟ هل كان عليه أن ينتحر؟

– ما كان لديه سوى ذلك. واجه قدره، وهو مؤمن.

عن النقاش ولذت بالصمت. تذكرت ما قال حين خرجنا من الاجتماع مهزومين مذلولين مكسوري الفؤاد والخاطر. قال لنا: إما أن ننتحر هنا في دمشق، أو نذهب للعراق ونختفي فيها أو نعود الى فلسطين ونموت هناك. فهل نحن عائدون لنموت هناك؟ إذن ما قاله عن الطود الأشم وتزداد نفسي منعة ما حل خطب وادلهم ليس أكثر من مكابرة وشحذ للهمة وهبوط النفس. أما الحقيقة والواقع فهو ما لاقاه أبو كمال. أحس أنه محاصر فلم يهرب، واجه قدره.

قلت أذكره:

– وماذا نفعل بأحبتنا؟ إذا متنا نحن من يبقى لهم؟

قال بقنوط:

– لهم المولى. ربك يرحمنا ويرحمهم.

والتفت الى النافذة، وكنا قد وصلنا ضواحي القدس، ورأينا أفواج الفلاحين يحملون الصرر والفؤوس ويمشون ببطء، يجرجرون الأقدام وبضعة حمير وأغنام وكلب جائع أمام الجمع يركض وأنفه مغروس في التراب يبحث عن عظمة أو كسرة خبز. النساء يحملن الصرر والأطفال وأكوام القش، والرجال يحملون العصي والمعاول ويسوقون الحمير المحملة بأمتعة قليلة، حصر وفراش وباقات قمح خضراء لم تحصد بعد، كانت مجزوزة من جذورها، لم تنضج بعد.

أشار بأصبعه وقال بوجوم:

– أترى هؤلاء؟ هذا بالضبط ما سيحل بنا إن نحن تخلينا عن حصار المستعمرات. إن سقط الحصار حاصرونا، نصبح مثل هؤلاء بلا مأوى نبحث عن عمل وعن لقمة، ونأكل القمح وهو أخضر، ونصبح كالشركس والأرمن، لا أهل ولا أرض ولا مأوى.

عز علي ما كان يقول فقلت محتجا بحرارة:

– لكن الشركس والأرمن كانوا بلا ...

ولم أكمل، ونظرت ثانية لما وراء الزجاج أتأمل المشهد أمام عيني وخلف ظهري وهمست بحزن:

– مثل الأرمن!

قال بعد فترة صمت وهو ما زال ينظر من النافذة ويرى الربيع يملأ بالخضرة أراضينا:

– هذا نيسان، بداية الربيع ودوران الحياة. أنا ولدت في نيسان، أنا أول برج في الأبراج.

– يعني الحمل!

سأل باسما:

– تعرف بالأبراج؟ ماذا تعرف عن برج الحمل؟

– برج الريادة والقوة والحب والعشق والتهور. برج الاندفاع والتحدي، برج الطاقة، برج العشاق.

سأل بسخرية:

– يعني الحمل ليس وديعا وليس بريئا!

– بل هو بريء يا قائدنا، ووديع وأليف كحمامة، لكنه حين ينقر، يصبح كالصقر إذا تهيّج، يصبح كالنسر، يصبح كالغول.

أطلق قهقهة مكتومة:

– أتراني كالغول يا سليط اللسان؟

قلت بإحساس:

– بل كالحمل على صدر المسيح. ألم تر كيف يصوره الأوروبيون؟ هم يقصدون أن المسيح هو الحمل.

نظر إلي بطرف عينه:

– وقتلوا المسيح وقتلوا الحمل!

قلت ملغزا:

– لكن حملنا لن يقتل لأنه كالنسر في أجوائه، فوق أرضه، فوق ربيعه. هذا نيسان يا قائدنا، هو بدء الربيع ودوران الحياة.

أطرق متأملا:

– أو بدء الموت.

وأضاف ووجهه لصق الزجاج:

– أهناك حياة إلا بالموت؟

والتفت إلي:

– إن مر نيسان على خير، قل مر الخطر ونسينا الموت.

وواصل ببطء وهو يلتفت بعيدا عني:

– وإن لم يمر، فخذ حمَلَك يا شاعر وودعنا.

وصمت وصمتُّ ولم أنطق لأن العبارة صدمتني وجعلتني أشك، فماذا لو غاب وودعنا؟ ماذا لو لم يمر نيسان على خير وذهب الحمل وودعنا؟ ماذا نفعل؟ ماذا إذن سيحل بنا؟ تحل علينا لعنة نخشون؟

×××××

وصلنا القدس فوجدنا المقر خلية نحل. مجاهدون ومتطوعون وفرق الإسعاف المتناثرة ونساء الوفود والجمعيات إلا ليزا. ليزا تتركنا في هذا الوقت وتذهب الى لبنان وسعادة؟ هل فقدت الثقة بنا الى هذا الحد حتى تنضم الى سعادة؟ ماذا باستطاعة سعادة أن يفعل في هذا الوضع؟ وهل سيقدم أكثر مما قدمناه؟ نقمت على سعادة وزوبعته وعلى لبنان وسوريا وكل الجامعة العربية. بدت لي القدس رمادية، فراغ موحش، والناس ضياع وبرد قارس.

نظرت حولي فرأيت نساء الجمعيات ونساء الوفود والممرضات يحطن بالقائد يتعبدنه بعيونهن وينظرن إليه كما لو كان يسوع المخلص! ماذا رأين؟ رأين الجمال والقوة؟ لو أنهن رأين كيف صلبوه في مقر الشام!

خرجت من القاعة أتنفس. الجو المشحون في الداخل يخنق الأنفاس. أحسست بالاختناق. في غرفة القيادة شد وجذب ونقاشات صاخبة، ونساء الوفود كأزيز النحل، ودموع ساخنة وعواطف. لم أطق الحمّ. نيسان الربيعي بدا ساخنا في ذاك الوقت. خرجت من القاعة أتنفس. نادتني وداد. كانت تقف عند السور بلباسها الأبيض وقبعتها ترفرف في الهواء وتلمع في الشمس. كم اختلفت وداد وكم كبرت، ابنتها صارت مراهقة وهي ما زالت كالطفلة. كبرت، صحيح، لكن طفلة. نجحت وأبدعت في مهنتها، وتعلمت الكثير في المستشفى والجمعية. لكن العمق، لكن الثقافة والخبرة، من أين لها وهي هنا في هذا الحصار! أختي وداد ليست ليزا! ليزا كانت مثل الشمعة، حالة فريدة، زهرة برية

تتضوع في جو غريب. ربما لهذا فضلت بيروت. نحن الحصار يحاصرنا!

نادتني وداد ثانية، وأشارت بيدها تستعجلني. ذهبت إليها واستندت إلى السور بجوارها أنعم بالشمس، ونظرت الى البناء. كان ما زال يعج بالوافدين والمتطوعين والمجاهدين. فوق الدرج وحول البناء وفي الساحة وأصوات الناس والطيارات وجو احتفالي قاتم، مليء بالشك. عاد القائد، لكن لا سلاح ولا نجدات ولا إنقاذ. جيش الإنقاذ يقف بعيدا، حول قرية جبع. وجبع بعيدة عن حدود القدس. جيش الإنقاذ ينقذ نفسه. حتى هذه لا ينقذها. ونحن هنا بتنا كالسيخ بلا غاندي، ماذا يحدث إن غاب الحمل وودعنا؟

سألتني وداد:

– متشائم؟

لم أجبها. كنت أغرق في أسئلتي وعمق ظنوني. أنا أشك، أنا متشائم. لم أرد أن أثبط عزيمتها. هي أيضا تناضل بطريقتها. تجمع المعونات، ترافق الجمعيات وفرق الإسعاف، تركض من مكان لمكان ويعلوها الشحوب، تخاف وتتطير وتتذمر. ما زالت تؤمن بالتعاويذ وبالأحلام. ما زالت تؤمن بالأرواح مثل أمي. ما زالت تؤمن بالمرآة.

قالت بوجوم:

– أمي اتصلت وقالت رأت حلما أسود. قالت رأت طيرا كالرخ، أسود كالليل، كبير كالفيل وجناحاه مثل الوطواط، غطى السماء مثل الغيمة، غيمة سوداء مثل القطران. أمك خائفة مذعورة وتقول حسنا وتقول وحيد وتقول القائد والأقصى. لم أفهم منها ولم أسمع إلا كلمات، كانت تهذي، وانقطع الخط. أرجوك يا أمين، اتصل بها. قل لها كلمات تطمئنها. قل لها إنك بخير ووحيد بخير والقائد بخير ونحن بخير. نحن بخير، أليس كذلك؟

لم أقل "بخير" لأننا لسنا كذلك. أنا أشم رائحة الموت. لكني وعدت أن أتصل بها، أقصد أمي، وأن أذهب لأطمئن على وحيد في المحاجر. رجالنا نسفوا محاجر الجيشار اليهودية، ونسفوا جسرا قرب قالونيا يصل المستعمرات اليهودية، جبعات شاؤول ومنتفيوري وبيت هاكيرم، نسفوه حتى لا يستخدمه اليهود لفك الحصار. لكن اليهود أعادوا بناءه في نفس اليوم وأرسلوا المؤن والتعزيزات بطائرات إنجليزية وأميركية. فلماذا أقول الوضع بخير؟ ليس كذلك.

التفتت إلي وحدقت في وجهي ولمست كتفي:

– ماذا تقصد؟ لم تجبني، هل نحن بخير؟ هل حصلتم على شيء؟ جئتم بالدعم؟ أسلحة؟ دواء وذخيرة؟ هل جئتم بشيء؟

هززت رأسي يمينا وشمالا فصاحت بدهشة مليئة بالذعر:

– لم تجيئوا بشيء؟ كيف؟ لماذا؟ هل غضبوا منكم أم ماذا؟ ماذا فعلتم؟ ألم تقنعوهم؟ ألم تشرحوا الأوضاع وتستعطفوهم؟ ألم تقولوا لهم أنتم الأهل والأخوة والعشيرة؟ من لنا غيرهم؟ أنظر اليهود، يأتيهم الدعم من الغرباء، الانجليز والفرنسيين والروس والأميركان ومن كل مكان، من كل دين وجنسية، ونحن العرب، ماذا فعلتم؟

– لم نفعل شيئا، خذلونا. قالوا الإنقاذ وجيش الإنقاذ. جيش الإنقاذ سينقذنا وينقذ القدس وحيفا ويافا.

فتحت عينيها وصاحت في وجهي كما لو كنت أنا جيش الإنقاذ:

– جيش الإنقاذ؟ جيش الإنقاذ ينقذنا؟ أين هو جيش الإنقاذ؟ ماذا فعل جيش الإنقاذ؟ ألم تقولوا لهم؟

– قلنا، قلنا.

– وماذا قالوا؟

– قالوا الإنقاذ.

– يعني فشلتم!

– ماذا نفعل؟ هذا هو الوضع.

– إذن القائد ...

ووضعت قبضتيها على صدرها وأخذت تلهث. وحاولت أن تكمل جملتها لكنها لم تتمكن إلا من ترديد كلمتين اثنتين:

– يعني القائد، يعني القائد ...

وسكتت وما زالت تشد قبضتيها الى صدرها وهي تلهث. التفت إليها لأرى ما حل بها، فوجدت رأسها مشدودا الى قبضتيها وظهرها يهتز. سألتها وقد انتقل إلي انفعالها:

– تبكين؟ لماذا تبكين؟ ما زلنا بخير.

هزت رأسها وهي ما زالت مطأطئة والقبعة البيضاء ترتعش بارتعاشاتها وقالت بصوت مكتوم متحشرج:

– ما زلنا بخير؟ وهو بخير؟ كيف يكون بخير وقد خذلوه؟ بماذا يقاتل؟

ومرت طائرة فوق رؤوسنا فاهتز الشجر وارتعش السور خلف ظهرينا ورفع الناس رؤوسهم ينظرون بقلق، ورفعت وداد وجهها فرأيت وجهها الشاحب أصلا وقد احمر والدموع جامدة في عينيها، وهمست بذهول:

– ماذا سيحل بنا يا أمين؟ إن مات وحيد ومات القائد؟ إن مات وحيد أمي ستموت. وإن مات القائد كلنا سنموت. إن مات هو من يبقى لنا؟

– هو رجل واحد، إن ذهب هو يأتي غيره.

التفتت إلي وقد كسا وجهها تعبير الأسف:

– أنت تقول هذا؟ أنت!

أحسست أنها تتهمني بالخيانة والغدر. رأيت في عينيها نظرات الشك كما لو كانت تقول: أنت يا أمين أمين سره، أنت يا أمين مستشاره، أنت يا أمين أقرب الناس الى قلبه! وضع فيك ثقته. أنت المثقف والشاعر، أنت الحساس، أنت الأخلاقي المتعلم وابن الأصول. أنت يا أمين؟ أنت؟ أنت!

– هذا واقع، وعلينا أن نكون واقعيين ونفكر إن ذهب هو ماذا نفعل؟

حملقت عينيها وقالت برعب:

– كيف تقول هذا يا أمين؟ أنت تفوّل عليه! كيف تفكر انه يذهب؟

– كلنا نذهب في يوم ما، هل هو خالد؟

صاحت بغضب وشفتاها تتشنجان ووجهها أحمر:

– طبعا خالد. هو كل شيء. هو الدنيا.

نظرت إليها أستوعب ردة فعلها الغريبة ورددت من خلفها:

– هو الدنيا؟!

وخطر لي أن إحساسها تجاه القائد أكثر من إحساس مواطنة مخلصة تثق به، وأكثر من مشاعر ممرضة أسعفته واعتنت به، وأكثر من ناشطة تدور في فلكه وتؤمن برسالته وإيمانه. أتكون وداد، هي وداد، وهو القائد؟!

قلت برفق كي أسحب منها ما لا أعرفه:

– هو رجل فقط، ليس نبيا، ولا خالدا، رجل واحد.

استدارت بوجهها وقالت همسا:

– هو أعظم رجل وأقوى رجل وأحلى رجل. هو كل الدنيا وما فيها. إن مات أموت من بعده.

لزمت الصمت. عقدت الدهشة لساني. اكتشفت سرا لم أفهمه وكان أمامي، أمام عيني، واضح كالشمس ولم أفهمه ولم أستوعبه إلا الآن. لماذا؟ ألأن وداد أختي الصغرى، أصغر مني، وأضعف مني، وأقل وعيا وثقافة؟ ألأنها وداد المهجورة؟ ألأنها شاحبة محدودة؟ ألأنها ليست لامعة مثل ليزا؟ ألأنها بسيطة وعادية ولا شيء يميزها عن الأخريات؟ لكنها ناضلت باجتهاد حتى تخرج من محنتها وتتفوق على ظروفها وأزمتها. وجدت لنفسها طريقا نجحت فيه وآمنت به. ألم تسعفه؟ ألم تجازف بإسعافه وتمريضه وهو الطريد الملاحق واعتنت به في مخبأه وتسترت عليه؟ ألم تخدمه طوال أسابيع وعرفت داخله وخارجة وداوت جراحة وأسعفته؟ ألم تكتشف عظمته ورجولته؟ هو الرجل، قالت بحرارة وعواطف، هو أقوى رجل وأعظم رجل وأحلى رجل. قالت أحلى، هكذا تراه، أحلى رجل. هو الرجل. هكذا تراه وتحس به، فلماذا أستكثر عليها أن تحس به؟ لو كنت امرأة مثلها وعرفته عن قرب، ألا أحسه؟ وكل هؤلاء النساء، لم يعرفنه عن قرب، لكن عيونهن تتوهج وهن ينظرن إليه كما لو كن يرين النور في عينيه والشمس تطلع من وجهه، ألا يحببنه ويتمنينه ويحلمن به؟ ربما بالنسبة لهن هو المثال والنموذج؟ وهذا المثال إذا ضاع واختفى وانطفأ نوره ماذا يحل بهن؟ ماذا يحل بنا؟ وهل نختلف جميعا عن وداد وعن نساء الجمعية؟ ألا نرى فيه الدنيا لأنه القائد والراعي والبديل الفذ عن الوالد؟ وإن غاب الراعي والوالد؟ أليس هذا ما قالوه؟! أليس هذا ما قالته خطة نخشون؟ أليس هذا ما خططوه وما درسوه وما عرفوه؟ أليس هذا هو الواقع؟ أما وداد، أختي وداد كيف تحبه؟ تحب رجلا كبيرا، أكبر منها، أكبر بكثير، من طينة ليست طينتها، كما أحببت أنا ليزا؟ إذن تحترق وتتعذب كما أحترق وأتعذب؟ وأحسست بإشفاق مضاعف، إشفاق علي وعليها فسألت بلطف:

– تحبينه؟

خفضت رأسها كما لو كانت تداري

ذنبا أو خطيئة وقالت همسا:
– أنا أعبده.
قلت أذكرها بواقعها كما ذكرتني بواقعي قبل دقائق:

– هو ليس لك، ولا أنت له!
هزت رأسها يمينا وشمالا، ورفعت عينيها ونظرت إلي كي تفهمني وقالت بصوت متقطع:
– هو يا أمين .. حبي الأول!

×××××

تمكنت من الوصول الى محاجر الجيش بشق الأنفاس. أنزلني السائق على الشارع العام وأشار إلى الهضبة وقال لي: احذر، اليهود من جهة الشرق والمجاهدون من كل الجهات، والقرى العربية والمستعمرات، أنت الآن في أخطر نقطة من الحصار.
رأيته في البعد، نقطة سوداء فوق الهضبة يعلو المحجر، يستظل شجرة بلوط منفردة في لوحة زرقاء سماوية في ذاك العراء. يشرف على القرى والمستعمرات اليهودية وخلفه مجاهدان أشعلا موقدا من أعواد القش والصنوبر لصنع الشاي وقد أسندا بندقيتيهما إلى صخرة وجلسا على حجرين متقابلين يستمتعان بدفء الشمس. أما هو فكان وحيدا، يحتضن رشاش برن لا أدري من أين اشتراه أو حصل عليه؟! في هذا الشح وهذا الغلاء، يصبح الرشاش مهما كان قديما ثروة مباركة تستحق الثناء.

رآني أقترب فوقف بتكاسل يلاقيني. لم يبد عليه أنه فوجئ بمجيئي. ربما كان يتوقعني، أو أن أحدا أوعز إليه أني آت، أو أن الرصد المتخفي في ثنايا الشعاب كان يراقب تحركاتي منذ قدومي ونقلوا إليه خبر وصولي.
جلسنا نستند إلى صخرة، وأحضر لنا أحد المجاهدين قدحي شاي بالميرمية، وعاد لموقعه بعيدا عنا عدة خطوات.
كان معكر المزاج بسبب ضياع القسطل من أيدينا وسقوط عدد من الشهداء. في كل مرة يسقط شهداء يتأثر ويبدو كيتيم فقد أهله. وتذكرت ما قاله في ذاك المساء في صانور داخل الإسطبل عند الشهباء، كيف يفقد رجاله ويودعهم فيودع أجزاء من قلبه. بهذه النفسية ورقة القلب كيف يستطيع أن يقتل ويقاتل؟ هو الجهاد كما فسر لي، وعبور الدنيا الى الجنة.
سألته عن حاله فقال لا بأس. وسألني عن الرحلة فوصفت له ما مر بنا ووضع القائد وحال القادة في مقر القدس فلم يبد عليه التأثر أو التشكك كما كنت أشك، بل ظل يقول إن الله لن ينسانا وأنه سيرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل. وأن المعركة حول القسطل ليست النهاية بل البداية، وأن النبي، حتى النبي، خسر معركة أحد ثم دحر الأعداء ودخل مكة.
قلت له إن دير ياسين وقرى القدس المحيطة بالمستعمرات ليست مكانا آمنا ، فالاشتباكات مستمرة، واتساع الحرب يبدو حتميا مع اقتراب 15 آيار وجلاء الانتداب، واستعدادات اليهود على قدم وساق، ومعسكرات الانجليز في وادي الصرار وصرفند وراس العين باتت مفتوحة على وسعها لمصلحة اليهود. اليهود يغترفون منها ما يشاءون، وأخذوا كل شيء حتى البراكسات. كما جاءوا بجنود مدربين من شرق أوروبا على حرب المدن والشوارع . كل هذا من أجل مستعمرات القدس وفك الحصار. إذن ستكون المعركة هنا في محيط القدس، والقرى العربية ستتأثر.
لم يبد عليه التأثر من تنويهاتي وتحذيراتي كما لم يبد عليه أنه تشكك بقدرات جيش الإنقاذ، ولم يبد عليه أنه فقد الثقة بسلامة الوضع وحتمية الانتصار لأن الله، كما كرر، لن يخذلنا، وجيش الإنقاذ لن يخذلنا، وقرى العرب فيها رجال تحت الندهة، ما أن تقول "عليهم يا شباب" حتى يتمنطقوا بما لديهم ويهجموا على الأعداء مثل الأسود كعادتهم. وأن لولا هؤلاء الرجال لما انتصرنا في معركة كذا وكذا، وأن اليهود جبناء ورعديدين بعكسنا نحن. اليهودي لا يفارق مصفحته، أما القروي فيهجم على الموت ولا يخاف إلا من الله.
قلت أنبهه:
– لكن القدس هي وجهتهم، وكل السلاح والمدافع والطيارات وخبراء الانجليز صاروا معهم، عينك عينك، بلا خجل ولا مداراة، يقاتلون معهم إلى جانبهم، وأعداد اليهود صارت بالألوف، 60 ألف أو أكثر غير الإنجليز، أما نحن، فماذا لدينا؟ 700 مقاتل نظامي بعضهم ما زال في بيرزيت وبقية القوى من القرى والفلاحين، وتعاد القصة من الأول كما حدث لنا سنة 29، وكما حدث لثورتكم في يعبد سنة 35، وكما حدث في نهاية 39، ثم ما حدث في صانور، ألا تذكر؟
وأخذت أعدد مواقعنا وما حدث للناس في القرى والمدن وضحايا الحرب في معارك غير متكافئة لم ترحمنا وكيف امتلأت الساحات بقتلانا وأصبحت سمادا لتراب الأرض.
التفت إلي وحملق في وجهي وصاح بصوت سمعته الجبال:
– أسكت، أسكت، هل أنت أخي؟ أنت طابور خامس وعميل اليهود؟ لم تبق أملا واحدا لم تقدحه وتجرّح فيه. ماذا لديك يا متفلسف؟ بماذا تقاتل؟ بقصيدة شعر أم بمقال لا يقرأه إلا المفلسفين أمثالك؟ حرب قذرة فرضت علينا فماذا نفعل؟ نسكت، ننخ، أم نقاتل؟
لمست ذراعه حتى يهدأ، وبقيت صامتا انتظر استرداده لمشاعره وأعصابه. وأخذت أردد كلمات رقيقة تذكره بأنه أخي الكبير وحبيبي وأني لم أقل كل ذلك إلا لأني خائف عليه وعلى نفسي وعلى القائد وضياع القدس. خائف من الإنجليز وقد غدروا بنا ومن اليهود وقد باتوا قوة لا يستهان بها، فماذا لو فكوا الحصار وحاصرونا بدلا منهم؟
التفت إلي، لكن عيناه ما زالتا مسدلتين نحو الأرض كأنه خجل أو خائف:
– هم يحاولون. بالأمس الشباب قتلوا يهوديا كان يحاول. كان يستكشف الوضع ويتسلل. لا أعرف كيف لقطوه، لكن قتلوه. أحضروا الجثة لأفحصه. شاب مسكين ابن 16، أبيض وأشقر ولا يلبس ثيابا عسكرية. ربما حاول أن يتسلل للحصول على شيء ما، ماء أو غذاء أو دواء، أنا لا أعرف. ربما كان ولدا مغامرا شقيا وهرب منهم، يعني غافلهم وتسلل. هم منضبطون، أنت تعرف، لكن الولد، هو ولد فقط، ولد وشاب ككل الشباب في أول عمره يحاول أن يصبح بطلا، أو ربما ككل شبابهم مخطط له وهذا دوره. ربما بعثوه ليستكشف. لكن لديهم طيارات ولماذا يرسلون ولدا مثله؟ أنا لا أعرف. المهم في الأمر أن الشباب قتلوا الولد واحضروه وفتشناه. أبيض وأشقر وعمره 16 واسمه دافيد ونسيت بقية اسمه، من يهود رومانيا أو بولندا. هويته جديدة، جديدة جدا، كأنهم طبعوها يوم أمس. الشباب كانوا يضحكون وهم يفتشون حوائجه وأنا أتفرج. أنا لم أضحك، قلت المسكين هذا ولد! قال أحمد: ونحن يا شيخ، ألسنا أولادا مثله؟ سكت وقلت، طبعا أولاد، كلنا أولاد حين بدأنا وها نحن كبرنا وختيرنا، بدأنا نختير. ماذا نفعل؟ هذا قدرنا وقدرهم، ولا احد يهرب من قدره.
والتفت إلي ليرى وجهي وليرى تأثير كلماته فحاولت الهرب لموضوع آخر، موضوع زوجته حسنا وولادتها، فقلت وأنا أشير للشابين كي يحضرا مزيدا من الشاي:
– أنا أقول حسنا تذهب عند أمي أو ترجع للقدس عند وداد. وداد ممرضة تعرف لها وتولدها.
– تريد أن تكون مع خالتها وأقاربها في دير ياسين.
– ماذا لو هجموا على دير ياسين والقرى المحيطة لينتقموا؟ أنت تعرف ما خططوا بخطة نخشون. سيعملون على إفراغ البلد بترويع الناس. هذا مخططهم، ترويع الناس، وسلب ونهب ومذابح. دير ياسين في محيط القدس، دعها ترجع.
– لا لا أبدا، دير ياسين لديها تعهد من المستعمرات أنها لا تؤذى ولا تؤذي. حتى أننا لم نستفد من دير ياسين بأي مقاتل. قالوا لنا نحن قرية صغيرة ومعظمنا

نساء وعجائز، ولدينا تعهد من اليهود وعاهدناهم، لا نتعدى عليهم ولا يتعدون علينا وتفاهمنا، لدينا اتفاق وتعهد. قالوا هذا، يعني دير ياسين آمنة جدا، آمن قرية في محيط القدس.

– وتصدقهم؟

– ربك يستر. لكن أملي أن جيش الإنقاذ لن يقف مكتوف اليدين يتفرج. جيش الإنقاذ سيدخل على الخط ويهزمهم، والجيش العربي سيهزمهم.

– ما زلت تقول جيش الإنقاذ؟!

– لديهم كل شيء، مال وسلاح ومدافع وعددهم ما شاء الله، أكثر منهم، أكثر من اليهود، أكثر بكثير.

– عددهم لا يتجاوز 5 آلاف. هم يكذبون. يقولون 15 ألف و50 ألف وهم لا أكثر من 5 آلاف. هم يكذبون.

– خلص، خلص، بدأت تخرّف. أنا لا أحب سماع قصصك. أنت تبالغ.

صمتُّ ولم أكمل لأني أحسست أن من العبث أن أناقش. أنا وهو طرفا نقيض. أنا شكاك متوجس وهو مؤمن. أنا أستند الى الحقائق وهو يستند إلى الأمنيات وإيمانه. من منا المبالغ والواهم؟ من منا الخيالي والشاعر؟ لكنه مرتاح بإيمانه، ليتني مثله!

×××××

أتخذ القرار بشن الهجوم لاسترجاع القسطل ولم يمض على رجوعنا من الشام إلا ساعات. حاول البعض ثنيه عن الدخول في معركة غير متكافئة ومتسرعة بهذا الشكل فقال موبخا:

– ألم نهب دماءنا وأرواحنا منذ البداية؟ فلماذا نبخل ونتردد الآن وقد آن الأوان؟ 15 آيار على الأبواب. إذا سقط الحصار سقطنا معه، وإذا سقطت القدس سقطت فلسطين!

قال أحدهم محاولا الإرجاء والتمهل:

– بعثنا مرسالا الى الجيش العربي في رام الله، فلننتظر، ربما يأتون.

نظر إليه من تحت حاجبيه وهو ما زال مستغرقا في قراءة ما قدمته من تقارير وقال ساخرا:

– الجيش العربي وغلوب باشا؟ إنس الموضوع!

وأردف باسما:

– وأوعى تقل لي جيش الإنقاذ!

لم يجبه الآخر خوفا من إثارة غضبه وتفجير مرارته.

التفت إلي وقال متذمرا وهو يطلع على الأرقام:

– هذا كل شيء؟

قلت متمتما وكأن الذنب ذنبي:

– هذا كل شيء.

فأخذ يقرأ:

– 123 مجاهد من سرية الروضة، 125 من القطمون، 40 من واد الجوز، 40 من الشيخ جراح، 50 من البقعة، 18 من الثوري، 10 من دار الهيئة العربية العليا...

ونظر إلي ببسمة متواطئة وعلق ساخرا:

– قل السفلى، بإذن الله هي السفلى، وماذا بعد؟ ماذا لدينا؟ 20 في عمارة الأوقاف، 20 في ماميلا، 15 في الشماعة، 35 في المصرارة وباب الزاوية، يعني كم مجاهد يا جماعة؟ قل لي يا أمين كلنا على بعضنا كم عددنا؟

كنت مستعدا لذاك السؤال فأجبت فورا:

– 506 مجاهد هنا والبقية في بيرزيت. المتواجدون ليسوا جميعا مسلحين. السلاح يكفي 300 فقط. يتناوبون على السلاح.[12]

– وعدد اليهود؟

قلت بدهشة:

أجاب الآخر، من حاول أن يثنيه عن بدء الهجوم المتسرع بالتحذير:

– عددهم بالآلاف يا قائدنا. ما بين 60 ألف الى 70 ألف، وكلهم مدربين على يد الإنجليز أحسن تدريب!

تجاهله والتفت إلي:

– عددهم في القدس، فقط في القدس.

– ألف من الأرغون يا قائدنا، وألف من الهاغناه، وما لا يقل عن 500 من شتيرن، وما لا يقل عن 300 من البالماخ.

– والسلاح، السلاح، ماذا لدينا؟

– يعني بالقطعة وبالحبة؟

– نعم بالقطعة وبالحبة.

– 19 رشاش، عدد غير مؤكد من البرنات والهوشكس والبراوننج لا أعتقد أنه يزيد عن عشرة، ومئة وخمسين قنبلة يدوية غنمناها من معركة موتزا، لكن أكثرها في بيرزيت.

– بعثت تطلبها؟

– بعثت، بعثت.

– وعند اليهود؟

أجاب آخر غير المحذر والمنبه:

– أنت عارف يا قائدنا، كل ما جاءهم عبر السنين وما أخذوه مؤخرا من معسكرات الإنجليز. يعني سلاحهم واصل لشوشتهم، غير المصفحات والدبابات والطيارات.

نهره معاتبا:

– ومالك تقولها وكأنك خائف؟!

قال الآخر متراجعا:

– أنا أقولها للتذكير.

ابتسم وقال كأنه يلقي بنكتة:

– ونحن لدينا مصفحة الشيخ سلامة، خير وبركة.

ونظر إليهم عساهم يضحكون، لكن أحدا لم يضحك. التفت إلي:

– طب والنجدات من القرى وبدو السواحير؟

– مئة أو مئتين على الأكثر، بسلاح عتيق وذخيرة خردة ومحدودة.

– وذخيرتنا؟

– صندوقين ذخيرة انجليزية، وصندوق فرنسي وصندوق ألماني، هذا كل شيء.

هز رأسه مفكرا، وقلب كفيه وقال كأنه يخاطب نفسه:

– لا مفر، لا مفر، هذا هو الوقت، وبلا تأخير.

والتفت إلي:

– وأخوك جاهز؟

– جاهز جدا، ومتحمس.

– طيب وانت؟

شعرت بوجهي يحمرّ فضحكوا بصوت خفيض وبعضهم ابتسموا بعطف فقلت بسرعة:

– أنا يا قائدنا أتفق معك في تحليلك. ساعة الحسم قد اقتربت. الحصار هو الورقة الوحيدة في أيدينا. معركة الحصار هي الحاسمة، إذا خسرناها خسرنا كل شيء. تريدون أن أقعد هنا لإرسال البيانات والتقارير للجرائد والإذاعات؟ أقعد في المقر كأني حارس؟ حتى حراس المؤسسات والهيئات استعدوا بما لديهم من مسدسات.

– وماذا لديك تقاتل به؟

قلت باعتزاز:

– لدي برن أخذته من أخي.

قال بدهشة ضاحكة مفتعلة:

– لديك برن؟! عظيم، ممتاز، مع ذخيرته؟

– عدة أمشاط.

– يعني تكفي؟

– طبعا، تكفي.

تفحصني غير مصدق ما أقول، لكنه سلم أمره وأرجع لي التقارير وقال عابسا:

– طيب إذن، على بركة الله، تظل معي، خلف ظهري، مفهوم؟ والآن نراجع الخطة كما اتفقنا:

الميمنة بقيادة بركات والشيخ قحطان وتهجم من جهة الشرق. الميسرة بقيادة بن جازي وتهجم من الجنوب الغربي. القلب بقيادة أبو دية وتهجم من الناحية الجنوبية. والقيادة بقيادتي وقيادة العمري والموسوس والعمد، وأمين وربيع معي، خلف ظهري. والاحتياط من قالونيا بقيادة أبو جبارة والشيخ المزرعاوي ... وإذا تمكن الشيخ سلامة من المجيء بمصفحته بهذا يسندنا ويحمي ظهرنا.[13]

ثم أنهى تحديد المواقع وتوزيع المسؤوليات بقوله مسلما:

– وقل اعملوا فسيرى الله عملكم والمؤمنون. صدق الله العظيم.

فقلنا جميعا: صدق الله العظيم، وبهذا

انفض الاجتماع وبدأنا الهجوم في مساء 7 نيسان 1948، ولم يكن قد بقي على موعد انتهاء الانتداب إلا أسابيع معدودة هي الحاسمة، وبعدها نتحرر بإذن الله، أو نموت بإذن الله! صدق الله العظيم.

الجزء الرابع

توجهنا نحو القسطل. كان ذلك قبل منتصف الليل بقليل والناس نيام، وهدوء حذر يحيط بالقدس وروابيها. كانت القسطل قد سقطت، وكذلك قريتي خلدة ودير محسن، وتمكن اليهود من كسر الحصار وإدخال قافلة مؤلفة من 40 شاحنة كبيرة محملة بالمؤن والذخائر تساندها طائرة هاجمت مواقع المجاهدين وتعقبتهم ولم تبق لهم أثرا يذكر.

حين تقدمنا من الموقع كان الهدوء يسيطر على المنطقة بأكملها، وأضواء المستعمرات تشعشع بالليل وتكشف الأبراج المنصوبة والأسلاك الشائكة والأسوار، بعكس القرى العربية التي لاذت بالظلمة واعتراها الخوف ورجالها قضوا ليلتهم في العراء فوق الأسطح وبين الصخور وشجر الصبار وأيديهم على بنادقهم ومناجلهم، وما إن رأونا حتى انضموا إلينا رغم تحذير قادتنا بأن ما لدينا من ذخيرة بالكاد يكفي بنادقنا، ورغم ذلك انضموا إلينا ولزموا الصمت.

كنت مع القائد في سيارته، وكان صامتا طوال الوقت، وحين نمر بنور ضئيل ألمح وجهه أو شبح وجهه قريبا منى، وأرى شفتيه تتمتمان بسور القرآن أو الأشعار، لم أتبين، وعيناه مصوبتان الى الأمام بشكل جامد. كنا نجلس في الخلفية، وسائقنا ربيع وحارسه عوض في المقدمة، وبقية القواد والفصائل تسبقنا أو تلحق بنا، وسكون قلق يشوب الشوارع والطرقات، وظلام مطبق يغطي الهضاب وما عليها من قرى وبيوت ومزارع.

ابتدأ الهجوم بتقدم قوات الميمنة بقيادة بركات وأخي وحيد. بدأوا بإطلاق نار كثيفة من جهة الغرب حتى يوهموا اليهود بأن الهجوم سيكون من جهة الغرب، وبدا كما لو أن المعركة الرئيسية ستدور على أطراف القرية الغربية. في تلك الأثناء أحطنا بسفح القرية من كل الجهات وانتظرنا تقابل الميمنة بالميسرة ودخول القلب الى القسطل، إلا أن اليهود كانوا بالانتظار وانقضوا على قوات القلب وقتلوا العديد من أفرادها وجرحوا قائدها أبو دية، فانفرط الجمع وتناثرت القوات وقد نفذت ذخيرتها وتساقط رجالها على الأرض ما بين قتيل وجريح ومتعثر. تراجع من فروا ببنادقهم الفارغة وبدا كما لو أن الحملة قد فشلت من بدايتها.

احتد القائد وارتفع صوته، وبدأ يهدد ويتوعد، ثم استعاد هدوءه ووقف لحظات يفكر وأنا أراقبه ويدي على قلبي ويدي الأخرى تشد على البرن بعصبية.

ناداني وقال:

– ما رأيك؟

قلت:

– نتقهقر ونعود ثانية بعد أن نتقوى ونتسلح ونستعد بشكل أفضل. يبدو أنهم محصنون بشكل جيد ومستعدون لأي اختراق أو تسلل. القافلة زودتهم بالمؤن ومزيد السلاح، وها أنت تراهم كالمتاريس البشرية.

هز رأسه وكرر العبارة من خلفي: متاريس، متاريس، نعم المتاريس. وأمسك بذراعي من ساعدي وقال: تعال. وسحبني حتى وصلنا سيارته حيث كنا نقف قبل قليل، وفتح صندوق الخلفية وقال: احمل. رآني أقف حائرا مرتبكا والبرن بين يدي أشد عليه خوفا من أن يسقط أو يهرب فقال موبخا:

– هذا البرن شاغل بالك، إرم البرن واحمل معي!

قلت مرتبكا:

– هذا برنّي!

خطفه من يدي وهو يدمدم بشكل ساخر:

– برنّه، برنّه، فهمنا برنك. لا أحد سيأخذ برنك ويخطفه منك. إحمل معي، إحمل، إخمل.

صناديق الألغام، فهمت قصده، هو سيعالج الموقف بالألغام. ألغامه الشهيرة لا تخطئ، مفعولها أكيد ومحدد، وكم قلنا عنها وكم قالوا، كم تفاخرنا بها، لكن الألغام في هذا الليل، في هذا الوضع، في هذا البعد، ونحن في الأسفل وهم أعلى، هم في القسطل وقبالتهم محاجر جيشار المحروقة، يعني محصنون بالطبيعة والقلعة وتلك المتاريس والأبراج وأطنان السلاح. ألغام صحيح، على رأسي وعيني تلك الألغام، لكن من سيوصلها الى القمة؟ من يثبتها ويفجرها؟

سألته بحذر:

– من يحمل الألغام ويوصلها؟

أطلق ضحكة خافتة من أنفه وقال مازحا:

– أنت وأنا.

همست بذعر:

– أنت وأنا؟ أنا لا أعرف بزرع الألغام! كيف نبثها ونشبكها ونوقّتها؟ أنا لا أعرف.

سمعت صوته يعبث بي ساخرا:

– الم تتدرب؟ ألم تقل أنك تدربت؟

– على بث الألغام؟ أنا تدربت وتعلمت كيف أصوب، وكيف أستعمل هذا البرن.

قال بغيظ:

– ملعون ابو البرن! انس البرن واحمل معي.

سألته ثانية وأنا أحمل أول صندوق:

– أنا وأنت؟

لم يجبني، بل وضع الصندوق من يديه على مقدمة السيارة وقال لي:

– أسرع نادي لي عوض واليازوري وأبو طربوش، يالله، بسرعة.

وضعت الصندوق من يدي على مقدمة السيارة بجوار صندوقه وهرعت نحو عوض، حارسه الخاص، وكان يقف أمام شاحنة الإسعاف وحوله مجموعة مقاتلين بعضهم يجلسون على سلسلة حجرية وآخرون على الصخور يراقبون المعركة في الأعلى وتقهقر الفارين وهم يتدحرجون والحجارة تقرقر تحت أقدامهم وفروع الشجر تهتز وتتكسر مع مرورهم وترنحهم. كان عوض ومن حوله يراقبون المشهد المعتم أمامهم كما لو كانوا يشاهدون لعبة كرة لا تعجبهم وهم متوترون ويشدون على أكتاف بعضهم بصمت ووجوم.

كان الصمت يخيم على الجميع وعيونهم شاخصة إلى أعلى والليل يخيم عليهم ونور القمر الشحيح يلقي عليهم ضوءا رماديا شاحبا، ورغم الرصاص ودوي المدافع، كانت أصوات تنفسهم ولهاثهم تصل واضحة إلى سمعي، أو تخيلت. تمكنت من الاقتراب من عوض بدفع الأكتاف من حوله. لمست كتفه فنقز واستدار بعنف ونقّزني. كان متوترا هائجا ويتمتم بالسباب والشتائم. قال بحدة حين رآني: نعم؟ نعم؟ أبلغته بما أبلغني القائد فمشى خطوات وعاد بصحبة اثنين آخرين توقعت أن يكونا اليازوري وأبو طربوش، وكانا طويلين عريضين ومسلحين.

وقفوا حول القائد وأنا خلفهم ألتقط ما يقوله ويتهامسون به. وسمعته يقول وهو يشير بيده الى أعلى، الى جهة الشرق: هذا المتراس. ففهمت أن مسؤولية زرع الألغام وتثبيتها وتفجيرها لن تقع على كاهلي وعلى كاهل القائد فهدأ بالي قليلا لكن القلق ظل يحاصرني لأني لم أسمع عما حدث للميمنة بقيادة بركات وأخي وحيد. كما أني لاحظت الوجوم يخيم على الجميع فاعتقدت أن المعركة قد انتهت بفشلنا لأن العديدين قتلوا وجرحوا وسقطوا على الأرض. وكان الناجون والمصابون يصلون تباعا فيهب الرجال لنجدتهم ويسحبونهم لشاحنة الإسعاف حيث وقف خوري مع راهبته. هذا فقط ما كان لدينا من إسعاف، شاحنة مغلقة وطبيب خوري يلبس معطفا أبيض فوق ردائه وراهبة واحدة بالأسود، ويود وحقن وضمادات. كنا 300 مقاتل بذخائر محدودة وإسعاف شحيح، شبه معدوم، وقائد عنيد رفض الاستسلام وتجاهل نصحي بالتقهقر، وعدة صناديق من الألغام، ألغامه، كان صنعها وركزها في مختبره، وها هي الآن في المعركة الفاصلة في القسطل، وستعمل على نسف المتاريس، تلك المتاريس، أراها بعيدة عنا بعد جهنم، وأظن أن المعركة قد انتهت وأن اندحارنا شبه أكيد ومحتم.

رأيته يشير بيده ثانية نحو المتراس الشرقي وأضواء البرج، فأفرغ الرجال عبوات الصناديق في جيوبهم وساروا بها نحو المرتفع من الجهة المعاكسة للمعركة والمتقهقرين الفارين وأزيز الرصاص يلاحقهم، ودوي مدافع هنا وهناك تصيب صخرة أو تحفر الأرض فيصلنا الرذاذ والشظايا فننبطح أو نختبئ خلف الصخور والسيارات.

لم يكن القمر بدرا، ربما بثلثه أو ربعه، لكن نوره والكشافات في الأعالي كانت تضيء بعض الملامح فأرى الأشباح تتحرك أو تنبطح وتختبئ خلف شاحنة الإسعاف، وضوء شحيح من باب

الشاحنة يظهر الراهبة تجلس بداخلها تمسك بمسبحة وتسبح. تذكرت وداد، وكذلك نساء الجمعيات اللواتي شكلن فرق الإسعافات الأولية والتضميد، لكن أحدا من هؤلاء لم يحضر. كان تحركنا سريا، وقرار الهجوم لم يعرف به إلا القواد، وحتى الأنفار والمجاهدين لم يعرفوا بالأمر إلا حين تجمعوا في ساحة المقر وأركبوهم الشاحنات إلى القسطل. ولم يحضر للإسعاف إلا خوري واحد كان يعمل في مستوصف أحد الأديرة، كان عضوا في إحدى اللجان القومية، أعلم بالأمر متأخرا فجاء وأحضر معه راهبة وعدة إسعاف وضمادات.

انتظرنا طويلا ولم يحدث الانفجار في المتراس الشمالي واستمر القصف بتقطع وبدا واضحا أن المعركة قد حسمت، وجرحانا وقد نالوا بعض الإسعاف ركبوا شاحنة أقلتهم الى مستشفى القدس، لكن أحدا من الميمنة لم يظهر بعد، فبقينا ننتظر حتى نرى أحدا منهم مع انبلاج الفجر حتى نلملم قتلانا وجرحانا أو نسمع انفجار الألغام في المتراس. وكنت أسمع القائد يكلم نفسه: يا الله يا عوض، يا الله يا يازوري وأبوطربوش. لكن لا عوض ولا اليازوري ولا أبو طربوش بان لهم أثر ظاهر، ولا انفجار الألغام، وبقي المتراس على حاله، أمام عينينا مضاء بكهارب وكشافات، وما بين الفينة والأخرى صلية رشاش أو قذيفة بعيدة عنا، كما لو كانت لجهة الغرب، فتوقعنا أن تكون الميمنة ما زالت مختبئة أو محاصرة في مكان ما، وهذا ما جعل القائد يرسل الرجال الى قالونيا طلبا للمعونة والنجدة.

فجأة ركب السيارة وركبنا معه أنا وربيع وثلاثة آخرون. كنا خمسة وهو السادس. قاد السيارة بنفسه باتجاه محاجر الجيشار المقابلة للقسطل. رأيت الشجرة على القمة حيث جلسنا أنا ووحيد أمس صباحا، وتذكرت ما قاله وحيد بالأمس وما سمعته منه أول مرة في الإسطبل في صانور. تذكرت ما قاله عن الفقدان والخسارة وما كان يحس به حين يفقد واحدا من رجاله. وللغرابة، لم يكن إحساسي كما وصفه. لم أكن أحس إلا بالخوف ودقات قلبي والظلمة، وأنا أغوص عاريا بماء ساخن، ثم بارد، وعرق يسيل عن ظهري، وما بين الفينة والأخرى أنتبه للآخرين وهم حولي أسمعهم يتنفسون أو يحوقلون أو يتهامسون، ثم أغيب في ملكوتي، داخل نفسي. ورأيت شبح القائد أمامي وقد خلع حطته عن رأسه وبدا شعره منكوشا منفوشا كطائر ضخم مصاب بالبرد، وتذكرت أنه لم يحلقه مذ غادرنا الى دمشق قبل عشرة أيام أو أكثر، وأغلب الظن بلا حمام، وأنا كذلك، ورائحة البارود تخفي رائحة جسمي وانسكاب العرق من إبطي، وندى نيسان يغمرني بماء بارد، ونظراتي زائغة وأفكاري بين الجيشار وأخي وحيد والشجرة، وأضواء القسطل مشعشعة كما لو كانت تحتفل بعرس أو زفة.

قفز من السيارة بسرعة ونحن تبعناه، ودخل غرفة فارغة مرتفعة، غرفة حارس أو حراث لا شيء فيها سوى فرشة، كانت تطل على القسطل فوق الجيشار.

أمسك بمنظاره وتطلع فيه بضع دقائق، وبصمت تام تخلى عنه وأعطاه لواحد من رفاقه وقال: انظر، أنظر، تأمل هناك من جهة الشمال وجهة الشرق. نظر الرجل في المنظار وقال: رأيته، وأعطى المنظار لصاحبه ثم آخر وآخر وأنا وربيع. وبسرعة عدنا من حيث أتينا، وتوجهنا مباشرة الى سيارته.

فتحنا صندوق الخلفية وتناولنا عدة صناديق، أفرغنا عبواتها في جيوبنا، وبدون سؤال أو جواب مشينا معا، هو أمامنا ونحن خلفه، وبدأنا نتسلق المرتفع نحو القمة حيث المتاريس.

ما كدنا نمشي عدة خطوات حتى لحق بنا العمري والعمد والموسوس وهم يصرخون: استنوا، استنوا! وقفنا ننتظر فاندفع الثلاثة كالمجانين وأحاطوا بالقائد يستحلفونه أن يعود وألا يجازف بنفسه لأنه القائد، ولا يحق للقائد أن يجازف. وسمعت أحدهم يصرخ بتعجب واستهجان: هذا لا يمكن وغير معقول! هذا انتحار! أنت القائد! تخلص من طوقهم وهو يلوح بذراعه ونحن خلفه، وظل الثلاثة خلفنا يستغفرون ويحوقلون وأحدهم يصرخ بصوت عال: هذا انتحار! ماذا نفعل؟ إذا حدث لك شيء ماذا نفعل؟!

في منتصف الطريق توقفنا عند مغارة ونزعنا الحطط عن رؤوسنا حتى لا يكشفنا بياضها في سواد الليل، وتوزعنا. ثلاثة باتجاه المتراس الشمالي، وهو وربيع باتجاه الشرقي وأنا خلفهما أحمل نصيبي من الديناميت وبرني العزيز فوق ظهري، نتسلق المرتفع مثل القطط ونزحف على بطوننا مثل الثعابين.

قبل الوصول الى القمة وقف وأعطاني مسدس إشارات وقال لي أن أطلق طلقتين حين أراه يلوح بيده وأظل مختبئا خلف الصخرة حتى يشير ويناديني. فجلست أنتظر وأترقب وأتمتم بالبسملات وأتذكر كل ما مر بنا طوال الأسبوع، وأراقبه وهو يكمل التسلق مع ربيع نحو القمة. كان يسبق ربيع ثم تباطأ وسبقه ربيع. ربيع أصغر، أصغر بكثير. هو لم يبلغ الأربعين، يبلغه اليوم مع هذا الفجر. قال لي ونحن في طريقنا من دمشق الى عمان أنه سيبلغ الأربعين في هذا اليوم، وأن زوجته اتصلت به وطلبت منه أن يكون معها ومع الأولاد في هذا اليوم. ستطبخ له أكلة يحبها، جزر محشي بدبس رمان، وكعكة تفاح بالقرفة وجوزة الطيب فوقها شمعات، أربع شمعات، كل شمعة عن عشرة. والتفت بعيدا عبر الشباك وقال بأسى: مسكينة وجيهة كم صبرت علي! أحسست أن ضميره يؤنبه فحاولت التسرية عنه بأن ذكرت له ما أعانيه أنا. قلت له إني أنا لن أتزوج لأني أحب حبا مستحيلا يحرق قلبي. التفت إلي يتأملني وقال ساهما كأنه يتذكر ويذكرها: الحق معك، الزواج في وضعنا هذا غير مناسب. ولكن، ألا تعتقد أنها كبيرة عليك؟ لم يقل الدين كما قالت وداد، ولم يذكر اسمها لأنه كما يبدو يعرفها ويعرف عني. الجميع يعرفون، وربما يسخرون خلف ظهري، وربما ليزا أيضا تسخر، لكني الآن في هذا الليل، في هذا الجبل، فوق الأشواك وبرودة الصخر تجمد بطني، وهذه الألغام تنخز فخذي، لا أرى أمامي إلا ليزا. لا أرى صورة أمي ولا وحيد ولا وداد ولا حتى القائد أمامي، ليزا ما أرى، فقط ليزا، بعينيها وبسمتها وشعرها القصير وشفتيها وهي تناقش، وهي تضحك، وهي تقرأ مقالاتي وأشعاري وتبتسم لي وتقول مشجعة: برافو يا أمين، برافو، برافو. فأحمر وأصفر وأشعر بالنقمة والحسرة لأني أحس أني صغير، أصغر بكثير.

أشار إلي يناديني، فعدت أتسلق من جديد ورآني أتعثر بما أحمل. جيوبي مليئة بالديناميت والبرنّ ينزلق عن ظهري ويرتطم بالصخر فأخاف عليه، هدية وحيد الأخيرة، حرم نفسه وأعطاه لي!

قال يستحثني:

– مالك؟ تعبت؟

قلت وأنا أحاول أن أبدو ظريفا وغير خائف:

– هذا البرن شاغل بالي!

ردد الكلمات من خلفي:

– هذا البرن شاغل باله! ملعون أبو البرن، لكن للحق هذا البرن يساوي ثقله، لعنة الله عليهم كلما حل ذكرهم. السلاح لديهم يصل السقف وبخلوا علينا بكم مدفع وستن وبرن. هذا البرن يساوي ثقله، دير بالك عليه.

قلت بحنان وأنا أتذكر الميمنة وما حل بأخي:

– هدية من أخي الله يخليه. برأيك هربوا أو قتلوهم؟

قال بجدية:

– لو قتلوهم لكنا عرفنا. أكيد في كمين، أكيد ينتظرون وصول الاحتياط والنجدات

من قالونيا. هذا البركات أنا أعرفه، شاطر وخبيث وعنده تجارب. يعرف يداور ويناور. لا خوف عليه وعليهم، اطمئن، اطمئن، المهم الديناميت ونسف المتاريس. إذا نسفنا المتاريس والاستحكامات ندخل فيهم، ندخل على طول. المهم الديناميت. كيف الديناميت؟ أوعى يسقط.

ربتُّ على جيوبي المنفوخة وقلت بقلق:

– المشكلة ليست أن يسقط، مشكلة المشاكل إذا انفجر بنا.

قال مطمئنا:

– لا ينفجر إلا إذا نحن أشعلناه وفجرناه. اطمئن، اطمئن.

أضفت بقلق:

– أو إذا اليهود أصابونا.

نهرني ساخرا:

– امشِ، امشِ، واحد خوّيف! أنت شاعر وكاتبَ مقالات ولا تصلح إلا للمكتب والملفات. أنا قلت لك خليك هناك.

قلت وأنا ألهث من حدة الصعود وثقل الديناميت وأتذكر ما عيرني به وحيد:

– وما نفع الأشعار والمقالات؟ أنسف المتراس بقصيدة؟ أصبع ديناميت أحسن من كل القصائد والمقالات.

قال مشجعا:

– عفارم عليك، بطل وصنديد طالع لوحيد الشيخ قحطان، وأختك وداد، يرضى عليكم.

فكرت بوحيد وأحسست بقلبي يتقلص. هل صحيح أنهم لبدو بكمين بانتظار النجدة من الاحتياط؟

قال وهو يلهث:

– أنا فعلا كبرت، اليوم طبقت الأربعين، اليوم عيدي، وإذا مر اليوم على خير ورجعنا للقدس بالسلامة تأتي معي وتأكل جزر محشي بدبس رمان، تحب الجزر؟

قلت مسايرا حتى لا أبدو قلقا ومتعبا ومتذمرا مما احمل:

– أمي لا تطبخ جزر محشي بدبس رمان.

سأل متعجبا بدهشة مبالغ فيها حتى يبدو الأمر طبيعيا وكأننّا في نزهة جبلية:

– لا تطبخ جزر بدبس رمان؟ ولا كعكة تفاح بالقرفة وجوزة الطيب؟

لم أجبه لأني كنت أعيد وضع البرنّ فوق ظهري وأنا أزحف، فأردف ضاحكا، أو ما اعتقدت أنه يضحك، لكن من لهجته وصوته سمعته يضحك:

– أنتم في نابلس بالكنافة، الكنافة وبس، لا كعك ولا جاتو ولا مطبق، كنافة وبس، لكن اليوم، إذا الله نجانا وسلمنا ورجعنا للقدس بإذن الله تأتي معي وتأكل الجزر بدبس رمان وكعكة تفاح بالبهارات. مالك ساكت؟ خائف؟ قلقان؟ أوعى الصخرة. هذي الصخرة دبقة وزلقة، كلها طحلب، تعال من عندي. إسمع، اسمع.

سمعنا طلقات، ثم قذيفة. فجلس مكانه خلف الصخرة وشنف أذنيه وقال بقلق:

– هذي القذيفة على المتراس الشمالي الله العليم!

حاولت الالتفات والنظر باتجاه المتراس الشمالي أو تحته، فلم أر شيئا. كانت الظلمة تجللنا رغم أن الفجر بدأ يطلع.

قلت معلقا:

– لو أصابوهم لكان الديناميت انفجر فيهم ولكان الصوت أعلى بكثير.

قال موافقا:

– مظبوط، مظبوط. يا الله نطلع ونلحق بربيع.

والتفت الي:

– إذا أصبنا أو استشهدنا أنا وربيع هذا المسدس للإشارات. تطلق منه طلقتين للجماعة، فاهم علي؟

أصبت بالذعر وأنا أتخيل أنه قد يصاب أو يستشهد ومعه ربيع وأظل وحيدا في العتمة عند اليهود أمام المتراس، أبقى وحيدا مع الجثمانين ويذهب المجاهدون ويتركونني ويجيء اليهود، أعوذ بالله. استغفر الله.

قلت بسرعة:

– فال الله ولا فالك يا قائدنا، أنشا الله العدو، أنا روحي فداك. انشا الله أنا. إذا أنا رحت لا نتأثر، المعركة تستمر، لكن إذا أنت رحت راحت القدس وكلنا رحنا، أنت القائد.

قال مهونا:

– لا تتشاءم، حتى لو رحت، الحبل طويل وعلى الجرار. أنا متأكد. حتى لو استشهد كل القواد، البركة فيكم وفي الأجيال. قصة طويلة، وجماعة الشام، الحمير التيوس، بكرة تصلهم خطة نخشون. سيرتهم غم، انس الموضوع. لكن يا أمين، إذا صار لي شيء، هذا المسدس للإشارات، وهذا الستن حافظ عليه، أعطيه لوحيد بدل البرن. هدية مني. أنت معك برن وهو معه ستن، حتى الإنجليز يخافوا منكم. المهم السلاح، آوالا لأ؟ آه الملاعين لو سمعونا وجبروا خاطرنا ونصرونا! الله شاهد، انس الموضوع.

قلت له وقلبي يخفق ويسقط في حفرة من الاكتئاب إن المعركة لا يقررها ستن ولا برن ولا حتى مدفع وطيارة. المهم القيادة والأبطال. المهم الشرف. المهم الكفاءة والإخلاص. المهم العلم والانضباط، لم يكن لنا قائد مثلك، كل الأبطال كانوا قبلك شرفاء وأمناء وأعطوا الكثير ولم يبخلوا، لكن على البركة وباب الله. لكن أنت، أنت غير شكل، وجماعة الشام مثل المومياء، خرج المتاحف والتصبير. ضحك وقال: حتى المومياء كثيرة عليهم. سيرتهم غم وحرقة قلب، انس الموضوع، يا الله وصلنا. هات ما معك. وانت يا ربيع امسك هذا، اشبك معي، خلي الأصابع مرصوصة، وهذا الجانب، هات أعطيني، ثبت السلك وشده والويه، واسحب، اسحب، وأعطيني باقي الأصابع، هات، استنى، خليني أشد. خلص، خلصنا، اسحب السلك، أوعى تقطع سلك الفتيل. يا الله نبعد. يا الله بسرعة. خلص خلصنا. هات الكبريت. جاهز؟ جاهز؟ أشبكوا ايديكم فوق روسكم، وانت يا ربيع نم على بطنك وما تتطلع. واحد، اثنين، بم بم ... بم بم!

×××××

انفجر اللغم وأضاء الكون. رغم وجهي المدفون تحت ذراعي رأيت الضوء البرتقالي يضيء الأرض، وأحسست بالهواء الساخن يدفعني، ولولا انبطاحي على التراب لطيّرني. وشممت رائحة البارود وأحسست بشظايا الصخر تتساقط فوق رأسي وظهري وساقيّ. وبعد الانفجار ساد صمت كصمت القبور، فلا مدافع ولا رصاص ولا صرخة جندي ولا زقزقة عصفور. توقف الكون تماما ولا شيء في صدغي وأذني إلا قلبي، قلبي يدق، وسكون تام. ربما الانفجار أعطب أذني. ربما الخوف شل قواي وما عدت أحس. لكن فجأة، سمعت صراخا بالعبرية وصلية رشاش فوق رؤوسنا، ثم أقدام تقفز على الأرض من خلفنا. رفعت رأسي، ومن خلال الأضواء وخيوط الفجر رأيت الأشباح تتحرك هنا وهناك وباتجاهنا، ثم سمعت أبو طربوش ينادي: وله يا ربيع. وربيع فوق رأسي يصرخ: جاهز! ثم قنابل يدوية انفجرت هناك على بعد عشرين متر أو أكثر، ورأيت أجسادا تتساقط كألواح الخشب، أربعة، خمسة، عشرة وعشرين، يسقطون على الأرض ثم يركضون، أمام عيني، ثم يسقطون، ويركضون، على بعد خطوات، وأنا أنظر فوق ذراعي ولا أدري كيف أصبح ذراعي تحت وجهي. وكنت أراهم يتساقطون وأنا أنظر بذهول ولا أسمع إلا قلبي، وأرى أشباحا تتساقط. ثم أحسست بركلة في جنبي أيقظتني، وألتفت لأراه يحرك شفتيه. كيف رأيته؟ وهم هل رأونا؟ تعطلت الرؤيا. انطفأ الكشاف فوق مبنى ولم أعد أراه، لكني سمعته يصرخ ويركلني في جنبي: فز يا مجنون! أطلق الإشارات وأضرب، أضرب. أفقت وجلست وأطلقت الإشارات وأمسكت بالبرن وبدأت أرش كما تيسر، فوق رأسي، لا أرى أين، لكني أرش، وهو يصرخ، وربيع يصرخ ويحدثهم كما لو كانوا يسمعون ويفهمون، وأنا أسمع.

صوّب عليهم يا أهبل! سمعته يصرخ فانتبهت لما أقوم به. كنت أشد على الزناد

وفوهة البرن منحدرة لا تصيب شيئا سوى الصخور والحجارة، فرفعت لفوق، ورأيت جنديا يسقط من مئذنة المسجد حيث المدفع وضوء الكشاف، وسمعت هرولة من خلفي وتكبير الرجال: ألله أكبر، الله أكبر! وأحسست بذراع تسحبني، وذراع أخرى تشد بظهري وتوقفني، ثم تدافع جماعتنا من خلفي وحولي وأمامي ودوي مدافع وقنابل من جهة الغرب، وهو أمامي يقفز عن الجثث والسلاسل، سلاسل حجرية واستحكامات، ومدافع متروكة مهجورة، هجرها الجنود أو سقطوا بجانبها، وهو يركض هنا وهناك وأنا أتبعه كما خياله. يقف فأقف، يقعي فأقعي، يرفس الجثث فأرفس مثله، وحولنا الرجال يصرخون: الله أكبر! وشتائم ومسبات دين وصيحات ألم، ولمعان مناجل والسنجات. سلاح أبيض. رجال القرى لا شيء لديهم سوى معاول ومناجل، سقط كثيرون وهم يصرخون ويتشهّدون، جنون بجنون، لماذا جاءوا؟! وهو يركض وأنا خلفه. يطارد مجموعة تركض أمامنا كقطيع كلاب أو غزلان، وهو يصطاد وأنا أضرب، وهو يركض ويلاحقهم.

ابتعدنا عن المسجد وساحة القرية، ورجالنا ما زالوا بالسلاح الأبيض والسنجات. قتال شوارع وأزقة ومن بيت لبيت وأمام الدكاكين والأبواب المحترقة، بعضها مغلق بستائر صفيح وبيوت مخلعة الأبواب والشبابيك. أين سكان القرية؟ لا أحد هنا إلا رجالنا يقفزون مثل الشياطين هنا وهناك، يلحقون بالجنود الفارين وهم يلقون بأسلحتهم ويضعون أيديهم فوق رؤوسهم ويركضون، يصلون حافة المنحدر ويتدحرجون، ونحن نركض، والقرويون يلقون بفؤوسهم ويلمون الأسلحة المتساقطة عن الأرض، لا يطلقون، فقط يركضون خلف الفارين، ونحن ابتعدنا خلف الجنود، ثلاثة جنود، وهو يشير حيث اختبأوا، واحد هنا والثاني هنا والثالث هناك. أحدهم ألقى بقنبلة يدوية فلم تنفجر، رفسها القائد فطارت بعيدا مثل الكرة وتدحرجت واصطدمت بجدار، وهو يركض وأنا أركض، ويشير بيده الى الجدار ويقول تعال من هذي الدار. ودخلنا الدار، دار فارغة غير مسكونة، ما زالت على العظم بلا شبابيك ولا تبييض ولا أبواب. مررت أمام الشباك فأحسست برصاصة تخترقني، اخترقت كتفي ووقعت على الأرض. سمعته يصرخ: أخ يا مسكين! غبت عن الوعي، وحين أفقت كنت بجانبه على الأرض، هو جالس مثلي على الأرض، يستند الى الجدار ورجلاه ممددتان ورأسه مائل ودم كثيف من أذنه وعلى صدره. كان بلا أذن. منظر مرعب! رأسه مائل، ويده تشد على بطنه، لكن عيناه مفتوحتان وينظر إلي.

قال بحشرجة مبحوحة: أنا تصاوبت. نظرت إليه نظرة فارغة مذهولة. حاولت أن أفهم ما أرى، لم أفهم بعد. سمعت صيحات وزغاريد وتهليل وتكبير ونداءات. كان النهار قد طلع والأشكال واضحة ونور الشمس. نور على زجاج نافذة أمام عيني ومئذنة المسجد أراها وأرى فوقها علما يخفق، علمنا نحن، فقلت أحدثه حتى يفرح وينسى ألمه:

– هذا علمنا، أرى علمنا، أخذنا القسطل.

لم يجبني وظلت عيناه مفتوحتين ودمه ينزف، ما زال يسيل، أحمر قان وبعضه أسود ورأسه مسنود على كتفه، وكان بلا أذن. حاولت القيام فلم أستطع. كتفي المصابة، وذراعي الأخرى ترقد تحتي. قلت معتذرا: أنا تصاوبت. لم يجبني، وظل ينظر إلي ولا يرمش. حاولت القيام ثانية فلم أقدر. أحسست بألم خارق يخترق روحي وأمعائي فقلت معتذرا: مش قادر أقوم! لم يجبني، وظل ينظر إلي كما لو كان يعاتبني فقلت بحسرة: لو أقدر أقوم أنادي الإسعاف!

ثم تذكرت أن الإسعاف بعيد عنا، والخوري بعيد وكبير في السن، والراهبة تصلي وتسبح، أو تربط جرحا أو تضع اليود، كيف يصعدان الى القمة؟ وأصوات الرجال في الخارج يهزجون ويهللون وأحدهم ينادي:

– تعال يا ربيع، تعال يا محسن!

وأنا وهو، في أبعد دار في القرية، من يرانا ويحس بنا؟ ودمه يسيل وأنا ملقى ككيس فارغ، وبرنّي العزيز، أين برني؟ ضاع برني.

قلت أخاطبه:

– ضاع البرن!

ونظرت إليه، وكانت على وجهه بسمة ساخرة وحزينة، لعله يقول: ملعون أبو البرن. ولم يقل. فقلت أواسيه:

– ستنك بحضنك و بارشوت.

مسدس بارشوت 8 ملم وستن رائع، أحدث موديل، لا أعرف من أين اشتراه أو حصل عليه، ربما من موتزا. رشاش انجليزي أحدث موديل و3 أمشاط، وأنا لدي مشط واحد. لم أكن جبانا. لم أكن سيئا. أفضل بكثير مما توقعت. لم يغمى علي سوى مرة، كيف أصيب وكيف أصبت؟ أين إصابته بالتحديد؟ رأسه مائل ويده على بطنه وبسمة ساخرة على شفتيه، يسخر مني لأن البرن شاغل بالي، يسخر مني.

قلت أطمئنه:

– سيأتي الإسعاف.

لم يجبني.

قلت لأفرحه:

– أخذنا القسطل وعلمنا فوق.

لم يجبني. تأملت العلم والسماء الزرقاء والشمس الذهبية على المئذنة وقلت بارتياح:

– الحمد لله خلّصناها.

اتسعت ابتسامته، أو تخيلت، فقلت أذكره أن اليوم هو عيد ميلاده وسنعود الى القدس لنأكل الجزر بدبس رمان ونطفيء الشمعات فوق الكعكة وأربع شمعات.

قلت أطمئنه:

– نرجع للقدس عند أختي وداد. أختي تداويك وتداويني.

وتخيلت وداد ترانا وتبكي ويغمى عليها. بدأت أبرد وأشعر بالبرد فقلت له:

– الدنيا برد. الدنيا الصبح. نيسان بارد والدنيا الصبح.

وعدت أتأمل العلم فوق المئذنة وأقول لأفرحه:

– علمنا فوق، الدنيا برد.

لم يجبني، لكني سمعت صوتا خلفي، صوتا يقول:

– هذا القائد!

أحدهم مر فوقي وتعثر بي فانفجر الجرح وغبت عن الوعي، وحين أفقت سمعت نشيجا وصراخا: القائد مات، مات استشهد. وغبت عن الوعي.

أفقت ورأيت وجه الراهبة وهي تدمدم: يا يسوع، يا يسوع، آه يا عذرا، ودموعها تسيل على وجهي. لماذا تبكي؟ سألت بذهول: مات القائد؟ لم تجبني، لكني سمعت أحدهم يقول: مات، أستشهد. إنا لله! الله أكبر!

×××××

لم تمض سوى دقائق على استشهاد قائدنا حتى انتقل الخبر إلى القدس، والى كل عاصمة عربية، فأعلن الحداد على القائد البطل، وأذن المؤذنون في المآذن، ودقت أجراس الكنائس، وأحجمت الإذاعات عن البث لخمس دقائق، وتوقفت المدارس والمؤسسات عن العمل، وصدرت ملاحق طارئة لكل المجلات والجرائد تحمل النعي بالخط العريض وصورا وكلمات وقصائد. حتى القادة في مقر الشام ومكاتب الجامعة العربية وزعماء عرب ممن صدقوا وممن كذبوا، ممن خابوا وممن خانوا، رثوه بمراثٍ فردية وجماعية، وبرقيات ورسائل وأكاليل تمثل الشعوب وكلا منهم، وارتدت النساء الأسود في كل الجمعيات في كل العواصم العربية، وبدأ الاستعداد لجنازة ضخمة تضم القناصل العرب والأجانب وشيوخ الأقصى والأزهر وخوارنة المهد والقيامة في موكب مهيب تتقدمه موسيقى دار الأيتام الإسلامية والكشافة والنجّادة وفرق المقاومة الشعبية، وبدا أن الجميع يودعون فلسطين في القائد، ويودعون القسطل آخر ما دار في فلسطين من معارك. وهذا ما حدث فعلا، إذ أن الجميع تركوا القسطل ولم يبق فيها نفر واحد. كل المقاتلين تبعوا القادة الذين حملوا الجثمان مرفوعا على الأكف ونزلوا به من قمة الجبل حتى الشارع، ومن هناك نقلوه الى القدس محفوفا بكامل القوات وأسلحتها، ولم يبق في الساحة إلا القرويين الذين استمروا في مطاردة الجنود الفارين والاستيلاء على أحذيتهم وأسلحتهم، ثم الذهاب الى قراهم بما غنموه وفي يقينهم أن التحرير انتهى بعد أن أدوا الواجب.

كنت ما زلت بجانب شاحنة الإسعاف بعد أن نلت العناية اللازمة من الراهبة الباكية والخوري المرهق بين جرحى متناثرين على الأرض وقد خلفتهم الشاحنات العسكرية وسبقتهم الى القدس لحضور الجنازة، ومن هناك تمكنت من رؤية المشهد الذي انحفر في ذاكرتي لأني رأيته يتكرر ويتكرر على

مر العقود، في كل مسيرة عربية. في البداية رأيت القرويين وهم يطاردون الجنود الفارين والغنائم، ثم الحشود وهي تنزل من القمة كأسراب النمل محاولة اللحاق

بالموكب. بعض المقاتلين المنسيين وما زالوا بملابسهم العسكرية وقد عرّوا رؤوسهم ولفوا كوفياتهم حول أعناقهم وحملوا ما تيسر من سلاح وجدوه ملقى على الأرض أو غنموه، وقرويين مدنيين هرعوا من مخابئهم وأماكن لجوئهم في القرى القريبة وبيوت المزارع وتدفقوا يتدافعون في الطرق الترابية نازلين من المرتفعات متدحرجين بين الصخور في تسابق محموم الى الشارع، وبدا كما لو ان كل القرى المحيطة بالمستعمرات قد أفرغت من المسلحين لأن الجميع هرعوا ليشاركوا في الجنازة والموكب.

وحتى يكتمل المشهد الدرامي عبثية حلقت طائرات انجليزية – يهودية فوق الموكب والجنازة وفوق كل قرية ومدينة فلسطينية تجمعت فيها مواكب وجنائز رمزية وأخذت تلقي بنشرات تقول فيها ان القتال قد انتهى بموت القائد وهزيمة نكراء لكافة الدول العربية. ولم تمر أكثر من ساعتين على الخبر حتى تلقفنا أول نشرة وما زالت الحشود تتوافد كأسراب النمل إما للمشاركة في الجنازة أو لحاقا بمن هرعوا لها وفي ظنهم أن النازلين من المرتفعات يهربون من وجه اليهود، ولم يبق في القرى إلا الحوامل والمرضعات ونساء محاطات بالأطفال والمقعدين والعجزة. لهذا حين هجم اليهود على تلك القرى لم يجدوا مسلحين يتصدون لهم فصالوا وجالوا وسحقوا ومحقوا وسلبوا ونهبوا كما يفعل البدو في غزواتهم وجيش هولاكو، واقترفوا فظائع ومذابح من بينها مذبحة دير ياسين، لكن هذه سأجيء

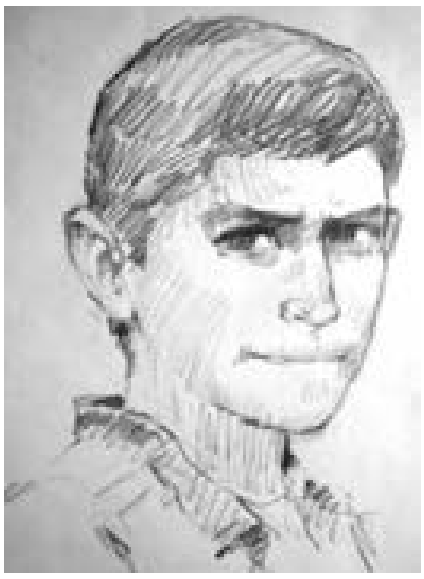

على ذكرها فيما بعد، أما الآن فسأحاول اعتصار ذاكرتي لما حدث في ذاك اليوم في معمعة الفوضى والحزن الرهيب على القائد، وما رأيته وأنا أنتظر مع الجرحى قرب شاحنة الإسعاف بانتظار سيارات تنقلنا الى المستشفيات والمستوصفات أو اللحاق بالموعد المحدد لتشييع الجنازة والقائد.

في المساء، وكنت ما زلت في المستوصف، جاء وحيد برفقة ربيع بعد أن دارا على كل المستشفيات والمستوصفات بحثا عني. كانا قد شاركا في التشييع وذرفا الدموع مع الباكين واستمعا للكلمات والخطابات وقرأا بذعر المنشورات فتذكرا القسطل التي نزفنا الدم الغالي من أجلها وبذل قائدنا روحه من أجل استرجاعها وقد باتت خاليه مهجورة فهرعا الى أحد القواد ممن لم يفقدوا صوابهم وأقنعاه بإرسال ما تيسر من مسلحين لحماية القسطل من غزو محتمل، وها هما يودعاني لأنهما عائدان الى القسطل وأوصياني بالذهاب الى نابلس لأن أمي في المستشفى وقد أصيبت بذبحة صدرية إثر سماع الخبر المفجع، كما أوصياني بالبحث عن وداد المفقودة التي لم يجدا لها أثرا في أي مستشفى أو مستوصف.

ذهبا وخلفاني في مستوصف الدير. وبعد العصر أذن لي الخوري بالمغادرة فخرجت الى القدس أجوب شوارعها، وكانت خالية مهجورة وقد ارتفعت فوق مبانيها أعلام سوداء وصور القائد، وفتات الأزهار من أكاليل الموكب ومئات النشرات والقمامة وما تبقى من أثر ألوف شاركوا في الجنازة. ورأيت بعض الأرصفة مكسرة ومقاعد البلدية مخلوعة وأعمدة الكهرباء والتلفون مائلة بسبب التدافع والتزاحم، وكل الدكاكين والمحال مغلقة مهجورة. غاب القائد فاختنقت القدس، ولم يبق فيها عرق أخضر. حتى الشجر المحيط بالشارع بدا عاريا وتكسرت أغصانه بسبب تسلق الصبية الذين استقتلوا على متابعة ما يجري في الموكب، وربما لاقتطاف بعض الفروع لنثر الأوراق على قبره، أو لأن الشجر أبى إلا أن يساهم في التشييع، فتهدل وانحنى وسقطت من حزنه أوراقه .

×××××

كان المصاب أليما. ذاك الرجل أحببناه بكل قوانا وآمنا به، ومع فقدانه فقدنا صوابنا وبتنا كالغنم بلا راعي. وتذكرت ما قالته خطة نخشون عن أن العرب ينساقون كالغنم وراء الراعي، وأنهم بلا راعي يهيمون على وجوههم ويندثرون كعصف مأكول. وهذا ما حدث لنا، إذ بعد انفضاض الجنازة والموكب ذهب كل فرد إلى عائلته يحتمي بها أو يحميها، وهذا أيضا ما فعله أخي وحيد حين ذهب الى زوجته في دير ياسين. لكنه قبل ذهابه الى دير ياسين ذهب مع ربيع ضمن مجموعة الأربعين الى القسطل وتمركز مع الرجال في القرية الخالية من السكان خلف المتاريس المهجورة. هناك جلس مع الرجال على الأرض وسط القرية وهم يتذكرون القائد وأقواله، ثم الجنازة والموكب، ثم الحيرة مما سيأتي وماذا يفعلون بعد غيابه. أشعلوا نارا صغيرة التموا حولها يتبادلون كلمات التعزية كما لو كانوا في سرادق عزاء، وشربوا الشاي وهم مثقلون بالحزن والكآبة، وبدا كل واحد منهم كما لو تلقى ضربة على رأسه وفقد توازنه وميزانه.

مع انسدال الليل رأوا مصفحتين قادمتين، واحدة انجليزية والثانية يهودية، أخذتا تخليان القتلى عن المنحدرات والمصاطب. طاقما المصفحتين رأوا بمناظيرهم المكبرة خلو القرية من السكان. رأوا الشبابيك معتمة والأبواب مخلّعة محروقة، ومجموعة متناثرة من المسلحين أغلبهم قرويين يحيطون بنار شحيحة يشربون الشاي ويتسامرون.

رجالنا رأوا المصفحتين تقومان بجمع الأشلاء فأهملوا ما رأوا وعادوا لأحاديثهم حول القائد، والجنازة، ومن جرح ومن فر ومن استشهد، وشربوا مزيدا من الشاي، وألقموا النار مزيدا من الأعواد وخشب الدكاكين المنهوبة والمحروقة، وعادوا لسرد ما رأوه وما سمعوه وما فعلوه وما يتوقعون أن يحدث. تناسوا أمر المصفحتين واعتبروا تواجدهما في الموقع أمرا طبيعيا ومرحبا به لنقل الموتى قبل تفسخ الأجساد وانطلاق رائحة التعفن.

بعد ساعة واحدة من انسحاب المصفحتين رأوا جحافل تقدر بالألوف تتقدم من القسطل مدعومة بالمصفحات والدبابات وطائرة لرصد الأهداف وتحديد المواقع. قائد المجموعة قال لهم إن التصدي لهذه القوات أمر مستحيل، وأنه كمسؤول ينصحهم بالانسحاب من القرية من أقرب الطرق والمنافذ، بل ساهم في توجيههم الى تلك الطرق وحمل بندقيته وتقدم الآخرين لينجو بنفسه ورجاله. لكن وحيد انسلخ عن الرجال وتوجه من فوره الى زوجته في دير ياسين لينقذها، وربيع عاد الى القدس ليعلمنا بما حدث لهم وهروب الرجال من القسطل.

سقطت القسطل دون إطلاق أية طلقة، فتوجهت القوات اليهودية إلى بقية القرى العربية، وهناك دارت اشتباكات لا تذكر، ومجزرة تاريخية في دير ياسين ذهب ضحيتها المئات من ضمنهم أخي وحيد، وهجرة من بقي من الأحياء إلى القدس وبيت لحم والخليل، ومذابح أخرى أقل ذكرا في طول البلاد وعرضها أدت إلى هجرة الألوف من فلسطين، وانتشار مخيمات اللاجئين في مدن وصحارى الدول العربية.

أما نحن، عيلة قحطان، بهذا بدأ تشتتنا. وحيد استشهد في دير ياسين، ووداد هجت من القدس وقيل رأوها في كل مكان، وأمي قضت في المستشفى بعد استشهاد القائد وأخي وحيد، ونضال ألحقتها بمدرسة الدير عند الراهبات حيث

عولجت، وأنا ذهبت الى لبنان لألحق بليزا وسعادة الذي وعد بتحرير القدس، ولم يبق في الدار، دار العيلة، إلا كتبي وأوراقي وآخر ما بقي من القائد، رسالة كتبها بخط يده ولم أرسلها، بقيت معي لتذكرني بما حل بنا، وسأنشرها في يوم ما مع ما كتبت

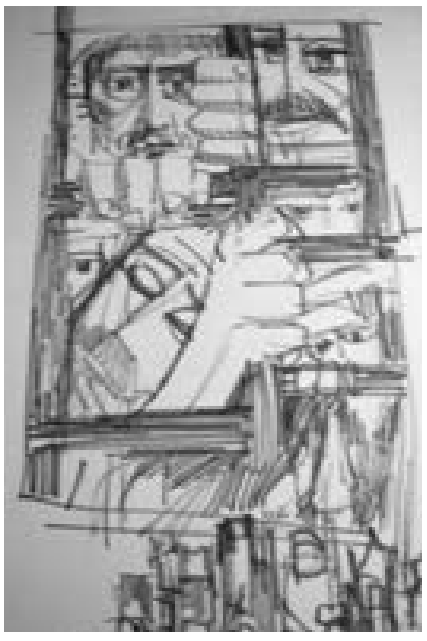

وما تذكرت، لأن التاريخ هو ما نكتب لا ما قلناه وخبأناه في صناديق القلب المغلقة وانتقل معنا إلى الآخرة وظلام القبر.

الجزء الخامس

أعود الآن الى جوي ومريض نائم في سريري والدنيا ليل وبرد وهواء وأصوات رصاص. نحن اليوم بعد الألفين لكن ما زلنا نعيش في زمن الحصار. بالأمس هم واليوم نحن والدنيا تدور ولا تهدأ لكن الحلقة مفرغة والزمن شحيح. لم يبق من العمر إلا أقله، ولم يبق أحد من أهل الدار إلا امرأة تقترب بحذر من السبعين. ولو لم يمت ذاك الرجل، لو لم تسقط تلك القسطل، هل كانت أمي تهجرني؟ هل كان خالي يستشهد في دير ياسين؟ هل كان أمين يهجر القدس إلى لبنان وإلى سعادة من أجل ليزا وتحرير القدس؟ والنتيجة، لا وجد ليزا ولا سعادة ولا حرر القدس ولا فلسطين، وعاش وحيدا في الغربة كما عشت أنا وربما أموت كما مات هو من غير القدس ولا وطن ولا حب ولا سعادة، وتظل الدار، دار العيلة، بلا وريث ولا أي أثر من آل قحطان!

أوراق خالي تذكرني بما حل بنا، ولوحات صباي أعادتني لزمن ولى ما زلت أعيش تلافيفه. هذا العجوز هو ذاك الصبا والحب الرهيف قبل الغربة ورماد الروح. انطفأت الجذوة وأطفئنا، من يشعلنا من بعد الخور؟ ذاك الرجل كان شعلة، سبق زمانه، وأمي أحبته، هذا مؤكد، ولو كنت أنا، بل كنت أنا، وأحس بقلبي يتململ ويشهق بالحب. أمن المعقول أن نتخيل ما ليس لنا وما لسنا فيه؟ أنا لم أعش تلك الحقبة ولا عرفت ذاك الرجل ولا صادفته، لكن قلبي يذهلني، يئن كما لو كان يشكو الفرقة وهجر الأحباب! ذاك الرجل، كما لو كان حيا يرزق في ذاكرتي، كما لو أكون أنا من أحببت وليست أمي! أليس غريبا أن نعيش الخيال كما لو كان جزءا منا، من حاضرنا، من ماضينا، كما لو كان كلا فينا؟ أليس غريبا أن نتذكر ما ليس لنا؟ أليس غريبا أن نشعر بالحب لمن رحلوا وعادوا إلينا بورق وصور؟ أنا لا أفهم!

تململ في السرير وتمتم كما لو كان يهذي ويحلم:

– نضال!

لم أجبه. كنت أعرف ما يهفو إليه. يريد استدراجي للاعتراف، ولن أعترف. أنا في القسطل، ما زلت هناك، وإحساسي مشوش وذاكرتي وقلبي يذوب لكن لبعيد، لرجل مات قبل أوانه، قبل أن يطفئ شمعاته، لرجل معشوق أمي أحبته، ونساء القدس، وأنا أحن وأتذكر ما كان لنا وما لسنا فيه هذي الساعة وأحس بشوق وبغربة وقلبي يذوب ويتنهد كما لو كنت شابة صغيرة ابنة عشرين. أنا في حيرة! ما هذا الشوق؟ ما هذا التوق؟ أنا أحب أم أتوهم؟ وهل كان الحب إلا وهما وحلما وسرابا وتخيل؟

سأل بدهشة:

– ما زلت هنا!

– أنا في القسطل.

– ووجدت أمك؟

– وجدت البطل.

فتحوا الإغلاق وذهب لداره، لكنه بقي على الشاشة. أهداني كمبيوتر سامسونج، أحسن كمبيوتر في العالم، هذا ما قال. وعلى الشاشة، أكبر شاشة وأحدث شاشة، أراه يوميا وأحدثه ويحدثني وأقول له ويقول لي وأشكو الوحدة ويشكو الغرام وأنا أضحك. وكم قلت له حتى أهدئه إن الزمن ليس زمننا وإنّا كبرنا على الغرام وحكاياته، لكنه يصر ويقول لي:

– وحدك في الدار وأنا وحدي، ولن تجدي أحدا يحبك أكثر مني.

أقول بلى، لو كان لي ولد أو بنت لأحباني أكثر بكثير من حب الرجل. حب الأمومة لا يفنى. حتى خالي، خالي الشاعر، قال هذا من تجربته حين كان يبحث عن ذاته. خالي الشاعر كان مزاجيا متقلبا ويبحث عن معنى لحياته. كان يبحث عن حزب أو فكر يملأ قلبه، ثابت وأصيل لا يتغير كحنان الأم. لكن لا حزب، ولا فكر، ولا حب رجل ثابت وأصيل كحنان الأم.

رأيت وجهه على الشاشة مثل الغربال، مليء بفجوات وتجاعيد، لكن عينيه، صدقا أقول، كالجواهر. ما زال الاخضرار تحت العدسات مثل الألماس، مثل الياقوت والزمرد. لماذا نشيخ إلا العينين؟ وأنا أحب عيني الرجل وعيني المرأة وعيني الحمار. عينا الحمار فيهما جمال ورجولة، فلماذا نغض النظر ونستشهد بعيني الغزال؟ ألأنه حمار؟ يضع سره في أضعف خلقه، أليس هذا ما نقول؟ وأنا أقول، يضع الجمال في البشاعة وعيني الحمار!

قال ضاحكا:

– يا ليتني كنت حمارا!

فضحكت كثيرا على الشاشة، وهو ضحك وحملق في الشاشة وقال لي:

– في يوم ما سآتيك بعيني حمار ليونّسك ويملأ دنياك بالرقة وحنان الأم.

الحيوان! يقصد أني أنا نضال، نضال القحطان، أم لحمار! هذا لأني أرفض حبه وأرفض أن أكون امرأة عجوز يكحكح ويصاب بالبرد من النسمة. لكنه فعلا فاجأني، إذ في الربيع، وكنت قد انتهيت من الترميم وملأت داري بالياسمين وزرعت الورد على الداير، وجذبت الحسون الى نافذتي، وكنت وجارتي ياسمين وصديقها سعد نجلس في الساحة نتشمس ونلعب شدّة ونسمع طريق المحبة تقول لنا عن حاجز هنا وعن حاجز هناك ولا نتأثر لأنا اعتدنا على جو الحصار ولأن الحصار لا يردعنا عن أن نعيش ونحلم ونحب ونتزوج، جاءني بمهر ذكرني بالشهباء، وبأحلى هدية في الدنيا، جاءني بأولاد ملأوا حياتي وملأوا لي الدار. كيف حصل ذلك؟ كنا كما قلت نلعب شدة في ساحة الدار فاندفع باب البوابة وإذا بربيع يدخل بمهر صغير ابن أسابيع، بوجه كالبدر وعينين ساحرتين كحيلتين بلون الأبنوس وقال مغيظا:

– حتى يملأ قلبك بحنان الأم ويذكرك بصباك وأيام زمان!

ياسمين ضحكت وسعد ركض نحو ذاك المهر وأخذ يناغيه ويلاعبه كأنه حَمَل، وأنا بوّزت لأني ظننت أنه يسخر ويشمت من عقمي وفراغ الدار. لكني فوجئت بعد دقائق بسيل عرمرم من الزوار، كبار وصغار، نساء ورجال، وأطفال رضع وحوامل. قدمهم لي، الأكبر فالأصغر فالرضع، وأنا وياسمين ما زلنا مذهولتين ولا نصدق ما نراه وما نسمع.

قدم لي أولا رجلين كهلين في الستينات وقال بفخر:

– هذا التوأم، أبناء خالك. هذان وحيد وعبد القادر، وهؤلاء، كل هؤلاء، أبناء خالك وحيد وعيلة قحطان. هؤلاء أولاد وحيد وأحفاده، وأولاد عبد القادر وأحفاده، وعدّي يا نضال، عدي وسمي باسم الرحمن خوفا عليهم من عين الحسود وعين اليهود.

طبعا بكيت من الفرحة والتأثر، ولم أعدّ. كانوا أكثر من أي عدد لأن الناس في بلدنا يلدون بالعشرة وبالعشرين. وأنا فعلا أخاف عليهم من عين الحسود وعين اليهود. هذا ما نعرفه ويصل إلينا عن طريق المحبة والأخبار، وصحف كثيرة في تل أبيب التي ما زالت تنتظر القائد العام وجيش الإنقاذ ليمحقها. أما نحن في هذا الحصار فلا ننتظر إلا المواليد، مولود جديد في هذا الشهر، وثلاثة مواليد بعد شهرين، وعشرة مواليد في نفس الشهر، وأحيانا نفاجأ بتوائم. وكالعادة، نسمي الأولاد على اسم الجد أو الجدة، نسمي وحيد ونسمي وداد ونسمي كمال ونسمي نضال، وخير الأسماء عبد القادر. ومع كل ولادة لطفل جديد أذهب وربيع إلى ذنّابة، أخصب قرانا الولادة، ونقدم هدايا للمواليد، ونزور أبو كمال مع الأطفال، ونضع الزهور على قبره، ونقرأ الفاتحة ونتذكر أن كان لنا في يوم ما رجال شرفاء أحببناهم وأحبونا وعاشوا معنا حتى في الموت.

تتمّة المقدّمة ص 3

هذا باختصار، وببضعة سطور، ما يدور في هذه الرواية وما يكتنف الأبطال من أحداث، لكن السرد، والوقائع، والحوارات، والقصص الصغيرة والشذرات، والوصف الدقيق لما جرى للشخصيات، والمشاهد المركبة والمعارك، وقصص الحب واصطخاب العواطف، وتأزم العلاقات، كل ذاك ينقلنا إلى مرحلة لم نعشها، أو ربما عايشها البعض، لكن استعادتها بهذه الطريقة، وهذا الأسلوب، والشرح الموثق للظروف السياسية والاجتماعية والنفسية في ذاك الوقت، قد يساهم في فهمنا لما يدور الآن، في هذا الزمن، زمن الثورات العربية وما يعتريها من غضب وتململ وانفجارات. إذ أن الماضي كما عايشه الآباء، هو بالضرورة ما أدي ويؤدي لما نشهده الآن، في الربيع العربي من إرهاصات، وما نشاهده ونعايشه من معارك وثورات وانتفاضات، ومحاكمات لرموز الماضي وأدرانه، من قبل الجيل جديد، جيل الحاضر والمستقبل، في سعيه المستميت لبلوغ النضج، وتحقيق العدل والحرية وانبثاق الجمال.

هذه الرواية ظهرت في بداية الصيف الماضي، وأثارت الكثير من التكهنات والتساؤلات، فنية وغير فنية، بعضها كان عميقا تحليليا، وبعضها كان طريفا، وبعضها غلبت عليه سمة والفضول والقيل والقال. فقد تساءل البعض عما إذا كانت الراوية نضال القحطان هي أنا، أي الكاتبة سحر خليفة بصفتها الشخصية والمعنوية، وما إذا كانت الدار، دار العيلة، هي دار عائلة خليفة وما خلّف، وما إذا كانت القصة العاطفية هي قصتي أنا وحبي الأول، وما إذا كانت الوقائع والأحداث حقيقية وواقعية، وما إذا كنت قد عشت تلك المرحلة وتلك الأحداث؟ وجوابي كان، وما زال، هو أن الراوية نضال القحطان هي أنا، لكنها ليست أنا. هي جزء مني، أو جانب من جوانب شخصيتي، فيها من الصدق بقدر ما فيها من اختلاق. كما أن الدار هي داري، ودار الكثيرين في نابلس وغير نابلس، ونجد مثلها في الشام ولبنان والقاهرة وحتى أسوان أو وهران، أي أنها دار العائلة العربية بكل ما فيها تناقضات وبطولات وتخبطات، والشخصيات هي أيضا حقيقية وواقعية لكنها ليست لشخوص بصفتهم الشخصية وهوياتهم الموثقة في شهادات ميلاد وهويات رسمية. هم أشخاص واقعيون لأني استعرت ملامحهم ممن حولي، من أعرفهم، ومن خاضوا تجارب مشابهة وتحلوا بتلك المزايا والصفات، لكنهم ليسوا حقيقيين، كما كنت أنا في الرواية أو كانت نضال. فيهم من الصدق الفني والواقع بقدر ما فيهم من خيال وخلق واختلاق. وهذه ميزة الفن، وبالتحديد الرواية، لأنها تخلق من الشبه ما هو واقع، وتحيل الخيال والخلق – أي الإبداع – إلى حقائق فنية تكاد بصدقها وحساسيتها تسبق الواقع، أو تعلو عليه، أو تعتصره وتختزله وتقدمه بشكل يصعب على الواقع المعاش المفروش والمفرفط أن يقدمه بهذا الشكل الكثيف والمبلور. لهذا قيل عن الشخصية الروائية الناجحة أنها أكثر صدقا وكثافة وواقعية من الشخصيات الحقيقية، وكذلك التاريخ والأحداث والوقائع.

قد يكون ما أسوقه وأحاول تفسيره هنا من باب الادعاء والتحيز، وأني أستغل موقعي ككاتبة روائية لأضفي على عملي، وعلى الرواية بشكل عام، مصداقية وأبعادا خارقة لا تمتلكها، وهذا ممكن. فالرواية كما نعرف هي المحك العملي والأصدق، ولهذا قيل وما زال يقال أن الرواية هي الأصدق وليس ما يقوله الروائي أو الناقد. وما على القارئ في هذه الحال سوى اختبار ما قيل من خلال قراءة النص، والحكم على التجربة مما يصله من مؤثرات تساهم في تصديقه، وشحن أحاسيسه، وتشكيل ردود فعله وانطباعاته.

هوامش

1 –جريدة المصري 4 نيسان 1948

2 –غلوب باشا: ضابط بريطاني كان القائد العام للجيش العربي الأردني

3 –الملك فاروق: خلع عن العرش بثورة 1952

4 –نوري السعيد: كان معروفا بميوله الغربية

5 –الأرامكو: شركة البترول الأميركية في السعودية

6 –كلمات الحوار في معظمها حرفية، أوردها أمين سر الجهاد المقدس قاسم الريماوي في: مخطوط عبد القادر الحسيني 1950

7 –عدد أفراد جيش الإنقاذ لم يزد عن 5 آلاف نفر من المتطوعين العرب وبعض الفلسطينيين. قيل عنهم ينقصهم التدريب والانضباط، يختبئون ليلا ويتغيبون عن مواقعهم بدون رقابة، ولم يشاركوا إلا في معركة واحدة خاسرة بعد 15 آيار 1948. كتب فيهم القنصل المصري في القدس في حينه تقريرا يشكوهم ويتهمهم بما أسلف وذكر أسماء أعداد ممن استخدموا السلاح لابتزاز المواطنين وبيع أسلحتهم في السوق السوداء في بيروت.

8 –هذا العدد أقر به القيادي العسكري الإسرائيلي رائيغال ألون.

9 –كلمات الحوار في معظمها حرفية، أوردها أمين سر الجهاد المقدس قاسم الريماوي في: مخطوط عبد القادر الحسيني 1950

10 –كلمات الحوار في معظمها حرفية، وردت في مخطوط أمين سر الجهاد المقدس: عبد القادر الحسيني 1950

11 –كلمات الحوار في معظمها حرفية، وردت في مخطوطة قاسم الريماوي أمين سر الجهاد المقدس: عبد القادر الحسيني 1950

12 –أعداد الأسلحة والمجاهدين حقيقية وموثقة.

13 –عدا عن أبطال الرواية المتخيلين، أسماء القواد حقيقية.